

الدكتور محمد رجب البيومي

النثر الفني في فجر النهضة

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

***

- ١ -

حين بدأت بشائر النهضة الادبية في مطلع هذا العصر ، اخذ النثر الفني بنصيبه الاوفر من هذا النهوض اذ ان حاجته الى الاصلاح كانت تهيب بذوي الغيرة الى العجلة والاسراع ، فلغة الكتابة الديوانية كلغة الكتابة الاخوانية ، من التهافت والركاكة والاسفاف في حالة مؤسفة ، اذ ان بعض الكتاب لا يفرق بين المذكر والمؤنث ، ويصف النكرة بالمعرفة ، ويجعل اداة العاقل لغير العاقل ، ويعيد الضمير على غير مذكور ، وقد يذكر المبتدأ دون خبر ، والفاعل دون فعل .

ومن الانصاف ان نذكر ان اول هبة للنثر الفني المصقول كانت على يد ناصيف اليازجي حيث شرع يقلد اسلوب المقامات في مجمع البحرين جهد طاقته ، ولا ننتظر من مثله غير ما ينتظر من عود ثقاب يوقد في ليل مظلم ، فمع ان ضوءه الضئيل لم ينر الطريق ، فانه جذب الانظار اليه ، فأخذ متأملوه يفرقون بين حديث معاصريه وبينه ، ثم اخرجت المطابع اكلها للناس ، فكان مما قدمته في مضمار النثر الفني المسجوع ، مقامات البديع ، ورسائل الخوارزمي وابن العميد الى جوار مقامات الحريري وآثار المدرسة الفاضلية .

وكان من حظ الادب لذلك العهد ان يتجه عبد الله فكري الى محاكاة الهمذاني لا الحريري فينشىء للناس ادبا ذا روح ، ويقوم في باب النثر الادبي بما قام به البارودي في مضمار الشعر ، فكلا الرائدين قد انقذ الادب من الركاكة والعبث بالالفاظ ، وقد كان الفارق بينهما ان البارودي رجع بالشعر الى العصر العباسي الاول ، اما فكري فلم يرجع بالنثر الى اعلام هذا العصر من امثال ابن المقفع وسهل والجاحظ بل رجع به الى كتاب القرن الرابع ممن يلتزمون طريقة ابن العميد ، واذا كان الرجل قد قفز بالكتابة الديوانية قفزة واثبة فان جهاده في غيرها اتم واوفر فلاول مرة تقرأ لاديب عربي في عصره شعرا منثورا لا تجري فيه المعاني وراء الالفاظ ، بل تلمس خواطر جديدة تتطلب التعبير الحي ، فتحس بصدق الكاتب ، وخفة روحه ، حتى يحوز اعجاب استاذه الناقد الكبير الشيخ حسن المرصفي فيقول عنه في كتابه (الوسيلة الادبية) :

« لو تقدم به الزمان لكان له بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان » والمرصفي يعني ما يقوله فقد رصد ظواهر النثر الفني في عصر البديع ، مقارنا بها اسلوب تلميذه عبد الله فكري فكاد الشبيه يقترن بالشبيه ، كما رصد ظواهر الشعر العباسي مقارنا بها اسلوب تلميذه البارودي فكاد الشبيه يقترن بالشبيه ايضا ، والناقد الادبي يرى ان عبد الله فكري قد حاكى بديع الزمان الهمذاني في ابرز خصائصه الفنية مع اتفاقه في خصائصه الفنية مثل خفة الروح ، وبراعة اللمح ، وحدة الذكاء ، وللقارىء ان يقرأ شيئا مما كتبه في رسالة اخوية الى صديقه الشيخ علي الليثي متحدثا عن طباخ وغلامه من ذوي البشرة السوداء . فقال في براعة :

« اما الطهي فالصعب فيه سهل ، والعقدة وشيكة الحل ، فعندي طاه عجيب الطهي ، غريب الامر والنهي ، لو تناول لحما ، وحاول ان يطبخه فحما ، لتيسر ، او اعطيته سكرا واقتضيته عسكرا لما تعسر ، او منحته رطبا واقتضيته حطبا لم يتأخر ، او جهزت له لبنا حليبا ، واوعزت اليه ان يجعله دما صبيبا لفكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، وله صبي وضيء كالقمر ليلة الثلاثين من الشهر ، ومطلع الفجر قبل السحر حال غيبة البدر ، بوجه كصفحة الشمس حين يغشاها تمام الكسوف ، ونور القمر الزاهر اذا انطبق عليه كمام الخسوف ، ويد اخف من نسيم الصبح ! واطول من ظل الرمح ، وعقل اقصر من غنفقة البقة ، وابعد من شقة الرقة ، وذكاء كتوقد

النار الحعليها وابل المطر، وفهم اثقب من السهم اذا سقط نصله وانكسر ، ونظافة كأسافل القدر ، حين تلقيها الاثافي عن الحجر ، ورزانة كأنها ابو رياح في صدور الرماح » .

ورسائل الكاتب ذائعة شائعة تفصح عن مكانـــه الجليل .

ولو لم يقدر للشعر المنثور في زمان عبد الله فكري ان يصلي حربا طاحنة من انصار الترسل والانطلاق لكان فكري زعيم مدرسة ذات تلاميذ كثيرين ، ولكن دعـــوة الافغاني الى الاصلاح السياسي والاجتماعي والديني دفعته الى ان يبغض هذا الضرب من التعبير الادبي لتلاميذه ، اذ ان صيحات الحرية والاستقلال اعتى واصلب من ان تحصر في سجع وازدواج ! فأخذ تلاميذه يكتبون باسلوبهم المتحرر المنطلق وكان ازدهار الصحافة مما يتطلب الاسراع والعجلة لا التريث الوئيد في تنميق خاطرة وتنسيق شاردة ، فاخذ الكتاب يحوكون مقالاتهم المرسلة في كل مجال فكري غـير عابئين بما لقنوه في طفولتهم من اساليب البديع ، بل ان الثورة على الاسلوب المسجوع كانت احدى ضروب الاصلاح لدى بعض المجددين .

فالشدياق بدأ حياته الادبية سجاعا كبيرا ثم اضطر حين ولج باب الصحافة ان يعدل عما الف فآثر الترسل ، واخذ يتهكم بالسجع في عبارات حفيفة مثل قوله من كتاب « الساق على الساق » (ص ٤٧) : « السجع للمؤلـف كالرجل من الخشب للماشي ، فينبغي الا اتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه ، وكثيرا مـا ترى الساجع وقد دارت به القافية عن طريقه الذي سلك فيها حتى تبلغه الى ما لم يكن يرتضيــه لو كان غـير متقيد بها » .

اما الذي هاجم السجع بضراوة غاضبة فاديـب اسحق ، اذ كان شابا ثائرا يتعجل الاصلاح في كل ميدان، وكان شبابه المضطرم يبعد به عن الرفق في النقد اذا ثار، فكما هاجم الاستبداد والظلم بحدة عنيفة ، تحس لذعها المتأجج في الحروف والكلمات ، وكأنها جذوات من صدره القى بها فوق القرطاس كذلك هاجم الاسلوب المسجوع في عنف حاد ! وسنختار هنا أهدأ ما قال فلسنا الان في حاجة الى الاستثارة ذات الحمية والحفاظ :

« لم يدخل هذا السجـع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الاسلام الا ما كان منه عفو القريحة ، فواصل غير مقفاة ، او ما يعزي الى الكهان والمشعوذين بما يراد بـه الابهام والايهام . فلما استولت العجمـــة على الالسن ، وضعفت قوة الاختراع في الاذهان ، سرى داؤه في المكاتبة الى هذا العهد ، فعدل الكتاب عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والاسلوب الطبيعي الى هذه الاسجـاع الملفقة البالية ، يتناقلونها خلفا عن سلف ، ويطيلون بها الكـلام بلا طائل سترا لقصورهم في ابتداء المعاني ، وايضاح وقائع الحال من طريقة البلاغة والايجاز حتى صارت من العادات وحصلت بين الملكات ، فدخلت في المراسلات الاخوانيـــة والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظائم الامور وسقط مـن ورائها الكلام المرسل الى غاية السفالة والركاكة فصار ما يكتب منه رطانة يفهمهـا بعض الجهـلاء ، وتعمى على الراسخين في العلم » .

وانصافا لاديب اسحق نعلن ان عفونة غير المطبوعين من محترفي الاسجاع كانت باعث نقمته ، اذ انه لم يحارب السجع على اطلاقه بل حبذ المطبوع السمح ان جاء عـن غير قصد ، لان فصحاء المتقدمين كانوا يسجعون عـن فطرة ، لا عن تكلف ! وقد كان اديب في مبدأ كتابته ساجعا كفارس الشدياق ومحمد عبده واكثر من عدلوا عن السجع الى الترسل استجابة لحاجة الوقت ودواعيه .

ونحب ان نقول ان مهاجمة السجع كانت تتطلـب التحديد اذ ان كتاب الشعر المنثور من ذوي الاسجـاع المطبوعة يعرفون جيدا ان اسلوبهم لا يصلح للصحافـة اليومية في ابوابها السياسية والاجتماعية ، ولكنه ضرب من ضروب التعبير الفني عن العواطف الذاتية والاحاسيس النفسية وكل ما تتعرض له القصائد الشعرية من وصف وهجاء وغزل وتهكم وعتاب !! وما حمل الحكيم الافغاني حملته على السجع الا حين وجه تلاميذه الى الكتابـة الصحفيـة في شؤون الاصلاح ، وما نخاله يعاف النثر الفني في ميدانه الوجداني وتصويره الوصفي ، بدليل انه اعجب باسلوب محمد المويلحي المسجوع وراى فيه بشائر النبوغ والكمال ، ورسالته في ذلك مسطورة بالصفحة الاولى من حديث عيسى بن هشام !!

ومثل الذين حاربوا طريقة بديع الزمان مثل قـوم راوا ارضا فسيحة شاسعة تظلل بعضها اعواد الزهور والرياحين ، وهم في حاجة الى الاقوات الضرورية مـن قمح وارز ، فاستأصلوا ما امامهم من الزهور ، وزرعـوا الارض الشاسعة بما يزيد عن حاجتهم من القمح والارز دون ان يتركوا زهرة في غصن ، ولو انصفوا لعرفوا مـا للازاهير من متعة وجدانية وراحة نفسية فتركوا لها فراغا من الارض يبهج العيون وينعش الناس ..

― ٢ ―

وقد كان الاخلاص المتحمس لدى ادباء اليقظة النثرية لفنهم الادبي اقوى من ان تعصف به عوامـل التثبيـط والخذلان ، فحين طرقت اسماعهم رعود المؤاخذة والملامة من انصار الترسل صموا آذانهم عما يقال، واندفعـوا في ابداعهم الفني الى ابعد الغايات ، ولم تفلح محاربة السجع في صدهم عن ميدانهم الحبيب ، ولكنها افلحت لدى الجيل الصاعد ممن وليهم من الكتاب، اذ نشأوا في مهاد الصحافة المترسلة ثم قرأوا ما حبذه فريق الترسل ودعا اليه مـن مؤلفات متحررة لامثال الجاحظ وابن المقفع وابن خلدون ، فشبوا يؤثرون الحرية والانطلاق .

وكأن مدرسة محمد عبده الادبية التي تأثر بها الكواكبي وقاسم امين وفتحي زغلول وعلي يوسف لم تدع لاشياع النثر الفني ان يجذبوا اليهم من ناشئة الادباء من يسير في طريقهم اشواطا جديدة فلم يطل عهد اليقظة لدى ادباء النثر الفني ، وجاء مؤرخو الادب فلم يخصوه بالتحليل والدراسة ، بل عده اكثرهم امتدادا لركاكة العصر العثماني ، واجترارا سقيما لالاعيب المحسنات دون ان يفصح عن شعور او يترجم عن احساس .

اما ذوو البصر من مؤرخي الادب فيعلمون ان نسيما جديدا من الشعر المنثور هب على وادي النيل ، فأيقظ افئدة ، والهم ارواحا ، وان المدرسة الادبية التي تزعمها عبد الله فكري قد اعادت ديباجة القرن الرابع ، ونهجت نهج كاتبيه ، فأصبح لدينا من ادبائها المطبوعين مصطفى نجيب وحفني ناصف والسيد توفيق البكري وابراهيم اليازجي ومحمد المويلحي واحمد مفتاح ! وان جيلا واحدا يزدهر بهؤلاء الكتاب لجدير ان يلتفت اليه ! وسنعرض من اقوالهم ما يثبت يقظة الشعر المنثور التي تغافل عنها الكثيرون ! ليلمس القارىء صدق الاحساس وقوة العاطفة وبراعة الملاحظة ، وانسجام اللفظ في كثير مما سطر هؤلاء ! واذا كان سرد الامثلة لا يغني عن مراجعة جميع ما يمكن العثور عليه مما قالوه والحكم عليه في نطاق شامل محيط فان في الاستشهاد ، ببعض الاقوال ما يشير الى معدن الفن الادبي لدى كل كاتب من مدرسة عبد الله !

قال مصطفى نجيب من بعض ما وصف به « الفونوغراف » :

« مثال القوة الناطقة ، من غير ارادة سابقة ، يقتطف الالفاظ اقتطافا ، ويختطف الصوت اختطافا ، مطبعة الاصوات ، ومرآة الكلمات ، اشد من الصدى وفعله في اعادة الصوت الى اصله ، كأنه الحرف عن يد الطابع ، والوتر في يد الضارب ، والقصب عن فم القاصب ، يحفظ الكلام ولا يبيده ، ومتى استعدته منه يعيده ، من غير ان يبقي لفظا في صدره ، او يكتم شيئا من امره ، كأنما حفظ الوديعة ، في نفسه طبيعة ، فلو تقدم به الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا في الاخبار الى عنعنة ، ولا في الدعاوى الى بينة ، بل كان يسمعنا كلام المسيح في المهد ، وصوت عازر من اللحد ، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم ، وانشدوه كلمتهم فرأينا به غرائب اليونان ، وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان وشعر سيدنا حسان بذلك اللسان ، فأصبح وجود الانسان غير محدود بزمن من الزمان ، فلله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه في لحظة معيدا لقوله ناقلا صوته ولفظه :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة   فان وجدت لسانا قائلا فقل

وقال حفني ناصف من رسالة يشكر فيها صديقه علي الليثي على هدية من العنب :

« لقد قابلناه لثما بالافواه ، ورشفا بالشفاه ، واحتفينا بقدومه كل الاحتفاء ، ولم نفرط في حبة عند اللقاء ، بل حللنا له الحبى ، وقلنا له اهلا وسهلا ومرحبا ، واوسعناه عضا ولثما ، وتناولناه تجميشا وضما ، وجففنا في صدرنا سره المكنون ، وطويناه في غضون البطون ، فطربت من تعاطيه الارواح ، ولا غرو فهو اصل الراح ، وانتشينا ولم نحمل وزرا وثملنا ولم نذق طعما مرا ، فهو كبيان مهديه سحر ولكنه حلال ، ولعب الا انه كمال ، وكان الاحرى بهذا العنب ان يناط بالنحور ، او تزين به الصدور ، فما هو الا اللؤلؤ لكن سلم من سجن البحار ، وما هو الا الدر لكن ليس فيه صفار .

ومن كنت بحرا له يا علي   لا يلتقط الدر الا كبارا

وما ضره ان ضمه القفص ، حصة من الحصص ، فان كريم الطير يودع في الاقفاص ، والقلب ليس له من حنايا الضلوع خلاص ، فلا بدع ان تستقل في حباته حبات القلوب، ويستملح في جنب حلاوته رضاب المحبوب»

وقال السيد محمد توفيق البكري يصف جامع ايا صوفيا :

« وفي القسطنطينية اليوم محال ، تشد اليها الرحال وتضرب بها الامثال، فمن ذلك اياصوفيه وما ادراك ما هيه مسجد كأنه هيكل لجبل ، قد طرح تربه ورضامه ، وركبت احجاره وعظامه قبة جوفاء ، كأنها قبة السماء ، فان اوقدت رايت بها الكواكب غير سائرة ، والافلاك غير دائرة ، ودعائم ، كل دعامة ، كالحق استقامة ، وارض من مرمر الاق ، وحجر براق ، يصف ما يحيط به من الاشياء ، فكأنه وجه مرآة وضاء ، وكأنما تلتمع السيوف في تلك السقوف ويكاد يرى القمر ، في ماء ذلك الحجر ، الى محاريب وحنايا ، وخبايا وزوايا ، كأنها مما صنع الجن لسليمان بالصفاح والصوان ، فان دخلته في العشاء الاخرة ابصرت الشموع صنوانا وغير صنوان ، كأنها رماح وفي كل رمح سنان ، وكأن اقباسها نضنضة الحيات ، او اشارة السبابة في التحيات ، ورايت الناس بين ركع وسجد ، وايقاظ وهجد ، شيب ما زالوا يغسلون بالوضوء السواد ، حتى محي محو المداد ، وشباب قيام للصلاة كسطر في كتاب ، والكل يجارون بدعوة الاسلام ، تحت استار الظلام » .

وكتب الشيخ ابراهيم اليازجي الى احد اصدقائه يعزيه من رسالة :

« ومن علم ان القضاء واقع ، وان الاعمار رهائن المصارع فلم يصحب دهره على غرة ، ولم يفتر من الاقدار بفترة ، لم تكبر عليه الرزيئة اذا اغتالت ، ولم يطمئن الى السلامة وان طالت ، فان للدهر رقدة وهبة ، وان لليالي كمنة ووثبة ، ومثلك من ادرك مبادىء الامور ومصائرها ، وعرف موارد الحياة ومصادرها، وانما الموت طور من اطوار الوجود ، وآخر اعمال الحياة في الموجود ، ولا ازيدك علما

تحررت من نداء التراب

ما عتابي ، وانت فوق العتاب
ليت يدري فؤادك السمح شجوي
ليت ما بي ، على التنائي ، خفي
كان يوم ، هجرت فيه الصحارى
غير اني ، وقد حسبت التلاقي
غبت عني ، وكنت في البال لحنا
كانت الشمس من رعاياي ، حتى
فاذا الضوء هارب من دروبي
كنت ضيعت في المتاهات خطوي
غير اني قرات بالهدب نجوى
الهناءات لم الملم شذاها .
انت حررت من خطاياي نفسي
هزني الحزن في جفون عذارى
فاختصرنا زماننا في عناق
يا شبابي ، وبهجتي ، وهنائي
هل تعودين ؟ ام ترانا سنطوي

غير نجوى تريحني من عذابي
منذ ابحرت في شراع السحاب
ليت تدرين ، يا منى الروح ، ما بي
مستطارا الى احب الرحاب ،
سرمديا - عرفت طعم السراب
وقعته منمنمات الرغاب
بت شمسا تهيم عبر الضباب
واذا الشعر هانىء باغترابي
كنت اخطات في النجاوى حسابي
اسلمتني لشاطىء الاهداب
قبلما جئت بالفتون العذاب ؟!
فتحررت من نداء التراب
لم تدنس بمغريات الشباب
وانسكاب يطيب بعد انسكاب
طال سهدي ، في وحدتي ، وارتقابي
ما تلوناه من سطور الكتاب

فوزي عطوي

بالكون وشرائعه ، والكائن وطبائعه ، انما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله ، وحل بساحته القضاء فأذهله ، وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المباح، ومن التاسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح ، وما اخلقني ان أقول : ان رزءك هذا قد زاد في شجنا على اشجاني ، ونكأ ما تماثل من قرحة احزاني ، ولكني قد سيرني الدهر الى حال ، لا تعمل فيها بحال ولا ابالي معها بسلم او قتال ، فكأنما اياي عنى ابو الطيب حيث قال :

رماني الدهر بالارزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقال محمد المويلحي من وصف مطيل لحديقة ناضرة :

« وما تخيلنا في هذا الروض منذ رايناه الا اننا في حفلة عرس ، جمعت اسباب اللهو واطراف الانس ، قد نصب الدجن عليها سرادقه ، ومد ملتف النبات فيها نمارقه ، واشرقت في الاغصان الانوار ، اشراق المصابيح بالانوار ، وقامت الاطيار على الاعواد تتسابق في الترنم والانشاد ، فهي تغرد بالحان يقطع السامع لها حبل النفس ،

ويأتي اليها مستنفر الوحش المفترس :

رات زهرا غضا فهاجت بمزهر ... مثانيه احشاء لطفن واوصال

وللنسيم بين الشجر نغمات بالهفيف والحفيف ، من ثقيل في الضرب او خفيف ، تصفق لها اكف الاوراق ، وتقوم الافنان للرقص على ساق ، مترنحة الاعطاف من

خمر الندى ، مهتزة القدود بغمز الصبا ، تبسم عن اقاح نضيد ، يزري بثنايا الغيد ، ثم تميل برشيق القوام ، فتلتقط ما ينقطها به الغمام ، والجدول يجري تحت اذيالها ويتعثر وينساب الماء في ظلالها ويتكسر ، كأن حصباءه اللؤلؤ والمرجان ، في نحور الحسان او قلائد العقيان في أجياد القيان :

تروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

هذه شذور مختلفة من النثر الفني في عهد اليقظة الادبية ، وهي غرس طيب كان من المنتظر ان يؤتى أكله حتى تنعم بنمط من النثر المجود ، اتاحته مدرسة عبد الله فكري للقراء لولا ترادف الحملات على السجع ! تلك التي عصفت بالمطبوع والمصنوع معا !

المنصورة - مصر **محمد رجب البيومي**



الدكتور احمد الحفناوي

المنوفية في عصرها الاسلامي

بقلم الدكتور احمد الحفناوي

مدرس التاريخ الاسلامي في جامعة المنوفية

* * *

تكونت المنوفية في العصر الفاطمي نسبة الى مدينة منوف التي كانت قاعدة لها وفي سنة ٧١٥ هـ سميت الاعمال المنوفية وفي العصر العثماني اطلق عليها ولاية المنوفية وفي سنة ١٨٣٣ م سميت مديرية المنوفية واصبحت قاعدتها شبين الكوم بعد ان كانت منوف (١) وفي سنة ١٩٦٠ م اصبحت تعرف باسم محافظة المنوفية .

وكلمة المنوفية مكونة من كلمتي : (من نفر) باللغة المصرية القديمة وتعني الارض الطيبة وتطورت الى (من نوفي) في اللغة القبطية وبنفس المعنى ثم تغيرت بعد ذلك الى منوف باللغة العربية ومنها جاءت كلمة المنوفية .

وتقع محافظة المنوفية عند رأس دلتا النيل فرع دمياط في الشرق وفرع رشيد في الجنوب والغرب وتبعد عن البحر المتوسط في الشمال ١٥٠ كيلومترا وكذا سميت روضة البحرين ويحدها من الشرق محافظة القليوبية والدقهلية ومن الجنوب محافظة الجيزة ومن الغرب محافظة البحيرة ومن الشمال محافظة الغربية وتبعد عن القاهرة حوالي ٢٢ كيلومترا من الطرف الجنوبي عند القناطر الخيرية وكان لهذا الموقع اثره في سهولة الاتصال بينها وبين سائر محافظات الوجه البحري والقاهرة .

والمنوفية اقليم منبسط ينحدر شمالا نحو البحر المتوسط ارتفاع سطحها ١٢ مترا عن سطح البحر وتربة المنوفية خصبة يبلغ عمقها ١٥ مترا في المتوسط تكونت من رواسب غرينية اتى بها نهر النيل من منابعه منذ ما يزيد على عشرة آلاف سنة والقى بها عاما بعد عام حتى تكونت ، وتتنوع هذه التربة فمنها الطينية السوداء والتربة الصفراء ، كذلك يوجد في جنوب وشرق مدينة قويسنا واحة رملية كبيرة وسط الاراضي الزراعية .

هذا ومن اهم المدن التاريخية في المنوفية :

شبين الكوم

وهي من القرى المصرية القديمة واسمها الاصلى شبين السرى ، وردت في قوانين ابن مماتي : شبين السرى من اعمال المنوفية (٢) وفي تاريخ سنة ١٨١٣ م وردت شبين الكوم وفي سنة ١٨٢٦ اصبحت عاصمة المديرية ثم عاصمة للمحافظة سنة ١٩٦٠ وكلمة كوم باللغة اليونانية القديمة تعني قرية وكلمة شبين محرفة من كلمة السنبتي التي كانت اسما لاحد الفروع القديمة في الدلتا وجاء في الخطط التوفيقية عن هذه المدينة : ان الجغرافيين اتفقوا على ان هذه المدينة هي محل قرية قديمة اسماها هيرودوت (أتريبيش) وانها في جزيرة اسمها (بروزيتيس) (٣)

ويعارض محمد رمزي هذا الراي ويقول : ان ما جاء في الخطط التوفيقية خاصا بشبين غير صحيح لان جزيرة بروزيتيس هي التي تسمى جزيرة نصر وان شبين الكوم لم تكن من قرى تلك الجزيرة (٤) .

هذا واسماها الرومان افروديتوبوليس وتعني مدينة الزهراء .

منوف

مدينة قديمة ذكر ان اسمها القبطي منوف العليا وقال ابن حوقل :

ان منوف مدينة كبيرة بها حمامات واسواق واهلها اهل تنايه (اي فلاحة وزراعة) ويسار وفيهم من وجوه الناس ولها اقليم عظيم .

وعليها عامل وقاض (٥) اما قوانين ابن مماتي فقد ورد فيها : ان منوف من اعمال المنوفية . وفي معجم البلدان : منوف من قرى مصر القديمة بأسفل الارض من بطن الريف يقال لكورتها المنوفية ، وذكرها القلقشندي فقال : عمل المنوفية اوله من الجنوب القرية المعروفة بشطانوف على اول الفرقة الغربية من النيل ومقر ولايته مدينة كانت قد خربت وبقيت آثارها كيمانا وولايتها من

مدينة كانت قد خربت وبقيت آثارها كيمانا وولايتها من انفس الولايات وقد اضيف اليها عمل ابيار وهي جزيرة بني نصر ثم اضاف : ومنوف مدينة حسنة ذات اسواق ومساجد ومسجد جليل للخطبة وحمام وخانات (٦) وفي القاموس الجغرافي انها: في تاريخ سنة ١٨١٣م باسم منوف العلا لانها تقع بالقرب من راس الدلتا في مكان اعلى مما تقع فيه منوف السفلى التي تعرف اليوم باسم محلةمنوف مركز طنطا وكانت منوف قاعدة الاقليم من الفتح العربي حتى سنة ١٨٢٦ م (٧) وكانت تشتهر بحركتها التجارية وصناعة الغرابيل والسجاد والدخان .

الشهداء

وترجع تسميتها الى العصر الاسلامي حين استشهد عدد من القادة والجنود العرب عند فتح المسلمين لمصر وتخليصها من حكم الرومان وكان على رأس المجاهدين سيدي محمد شبل بن الفضل بن العباس عم الرسول عليه السلام وحول ضريحه بهذه المدينة مقابر لمن استشهد معه .

جاء في معجم البلدان : « مقابر الشهداء موضع بارض وقعت فيه حروب بين مروان بن الحكم وجنوده وبين الزبيرية من اهل مصر سنة ٦٥ وقتل من الفريقين عدد عظيم فدفن المصريون قتلاهم في هذا الموضع واسموه مقابر الشهداء .

واذا تتبعنا الاحداث التاريخية وجدنا ان مصر كانت في القرن الاول الهجري تحت حكم الدولة الاموية ولما مات الخليفة يزيد بن معاوية بن ابي سفيان دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة فصار انصاره بمصر واظهروا دعوته وسار اليه جماعة منهم فارسل الى مصر عبد الرحمن بن عتبة بن حجدم واليا عليها فوصلها في شعبان سنة ٦٤هـ في جمع كبير من انصار عبد الله بن الزبير الذين يسمونهم الخوارج ولما بويع مروان بن الحكم الاموي بالخلافة جهز جيشا امر عليه ابنه عبد العزيز بن مروان وارسله الى مصر فاجمع ابن حجدم على حربه ومنعه من دخول مصر ثم جاء الخليفة بنفسه الى مصر وحارب حجدم في عدة مواضع كان من بينها موضع بالمنوفية سنة ٦٥ هـ ، قتل فيه من الفريقين عدد عظيم وانتهت المعركة بانتصار مروان ابن الحكم ودخوله الفسطاط سنة ٦٥ هـ وبعد انتهاء المعركة دفن انصار ابن الزبير قتلاهم في ذلك الموضع بقرية سرسنا فاشتهر بين اهلها باسم مقابر الشهداء وكان يوجد بجوار تلك المقابر كفر صغير عرف من ذلك الوقت باسم الشهداء وكان من توابع سرسنا ثم اخذ هذا الكفر يتسع بزيادة مبانيه وعدد سكانه الى ان اصبح قرية ورد ذكرها في تاريخ سنة ١٨١٣ م باسم سرسنا والشهداء ثم فصلت الشهداء عن سرسنا واصبحت ناحية قائمة بذاتها .

اشمون

وهي قرية قديمة اسمها القبطي Gemouni ثم حرف الى اشمون وردت في نزهة المشتاق باسم : اشمن جريس وبين الدينار والجريس وهي مدينة صغيرة في الغرب كثيرة العمارات فالبساتين والجنات (٨) .

وذكرها ياقوت باسم اشموم قال : هي اشموم الجريات بالمنوفية بمصر (٩) . وفي تاريخ ١٨١٣ وردت باسم اشمون جريس لمجاورتها لناحية جريس تمييزا لها عن اشمون الرمان التي بمركز دكرنس محافظة الدقهلية :

دروة

من القرى القديمة ، وردت في نزهة المشتاق انها بين ناحيتي الاخصاص وشطانوف وتتبع الان مركز اشمون بمحافظة المنوفية ، وجاء في قوانين الدواوين : ان دروة من اعمال الجيزية لانها كانت واقعة في جزيرة يفصل النيل بينها وبين اقليم المنوفية وفي القرن السادس عشر اتصلت تلك الجزيرة بارض المنوفية فاصبحت دروة من نواحيها ، وبذلك انتقل راس الدلتا من شطانوف التي كان النيل يتفرع عندها الى الجهة التي ينتهي عندها ارض القرية دروة وعندما اراد محمد علي الاستفادة من الاراضي الزراعية الموجودة بالدلتا فكر في ان يوفر لها مياه الفيضان التي تذهب سدى في البحر المتوسط وذلك بتخزين هذه المياه وضبطها وراء سد او قناطر ومن ثم وقع اختياره على راس الدلتا عند قرية دروة لاقامة هذه القناطر التي عرفت باسم :

القناطر الخيرية

وقد انشئت هذه القناطر سنة ١٨٤٧ م ، وتتكون من (٦٢) عقدا او فتحة على فرع رشيد و(٧٢) فتحة على فرع دمياط وعلى كل قنطرة (هاويس) وعرض الفتحات خمسة امتار ، واستمر العمل في القناطر في عهد محمد علي ببطء شديد بسبب اختلال الجهاز الحكومي في آخر ايامه ثم توقف العمل في عهد عباس الاول وفي عهد سعيد تم بناء القناطر وانشىء رياح المنوفية كذلك ويجدر بنا ان نشير هنا الى انه قد وضعت ثلاثة مشروعات لبناء القناطر :

مشروع لبيان ومشروع موجيل — وهو الذي نفذ — اما المشروع الثالث فهو مشروع كوردينه ، وعلى الرغم من ان مشروع موجيل قدر تنفيذه ستة ملايين فرنك الا ان نفقات اقامة القناطر بلغت ٤٧ مليون فرنك عدا اعمال السخرة التي لم تدخل في حساب النفقات وقد اخذ على مشروع موجيل مآخذ كثيرة اهمها ان دعائم القناطر اقيمت على (فرشة) ضعيفة ، ومن ثم فقد كانت القناطر في حاجة مستمرة للصيانة والاصلاح حتى تتمكن من القيام بوظيفتها (١٠) .

كذلك ادى اقامة سد اسوان وتعليته وانشاء خزان جبل الاولياء وزيادة مناسيب المياه امام القناطر الى ازدياد الخطورة مما حمل المسؤولين الى سرعة البت في مسألة

شكوى

بدنيا الناس قد فاضت شجوني
وصرت من الجنون على يقين

لبثت بكيدهم خمسين عاما
كأني في حماهم .. من قرون

يمر اليوم اثر اليوم فظا
بطيء الخطو كالرزء المهين

ولا ينجي من الاحقاد الا
ممات مستتب يصطفيني

بذلت لاجلهم شعري وشعوي
فما اشجاهمو الا .. انيني

وشدت لسعدهم حصنا حصينا
يمجدهم .. فجازوني .. بهون

* * *

وكم من صاحب اصفيت ودي
بطهر نادر طول السنين

وصرت اظنه خلا حميما
يصادقني ولا يحيا بدوني

فصار اضر من غالي حميم
واسفر عن طويات الخؤون

فيا ربي اجرني من زماني
وهب لي ان ابارح في سكون

لاحيا في حماك بغير سوء
بمناى عن رجيم او لعين

مصر الجديدة — نعمت عامر

القناطر فتكونت لجنة سنة ١٩٣٣ م لبحث الموضوع وقد اشارت اللجنة الى ضرورة بناء قناطر جديدة تحل محل القديمة وقد تم بناؤها وافتتحت سنة ١٩٤٠ م.

هذا وقد انجبت محافظة المنوفية كثيرا من العلماء والاعلام في الطب والسياسة والاجتماع والقانون تذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : الشيخ محمد موسى البجرمي الذي ولد في بلدة بجرم احدى قرى مركز قويسنا ونشأ نشأة دينية فحفظ القرآن ثم التحق بالازهر وتخرج فيه وانكب على البحث والاطلاع في العلوم الدينية واللغوية حتى عين عضوا بهيئة كبار العلماء وشيخا للمذهب الشافعي وتوفي سنة ١٣٢٩ هـ ومن علمائها الفقهاء كذلك الشيخ محمد الخضري الذي تولى القضاء في السودان كما تولى تدريس التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية وتوفي سنة ١٩٢٧ م.

ومن ابناء المنوفية المناضلين البررة عبد العزيز حجازي عمر الذي لقبه ناظر المدرسة الخديوية بلقب فهمي لذكائه وفطنته فعرف بعبد العزيز فهمي وقد ولد بقرية كفر المصيلحة سنة ١٨٨٢ م وهي القرية التي ولد فيها ايضا الرئيس حسني مبارك رئيس مصر حاليا وتخرج — اي عبد العزيز فهمي — في كلية الحقوق وعين بوظائف الحكومة ولكنه استقال وآثر المحاماة فاستطاع ان يؤدي واجبه نحو وطنه بالاشتراك مع الوفد المصري في المطالبة بحقوق البلاد كما اشترك في وضع الدستور الاول للدولة ومن اقواله المأثورة : منيت البلاد باستعمارين : الاستعمار الانجليزي واستعمار اسرة محمد علي وقد ثبت ان الاستعمار الاخير اشد خطرا على البلاد من الاستعمار الاول

كذلك من ابناء المنوفية البارزين الرئيس الراحل محمد انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية السابق .

لقد كان للمنوفية دورها البارز في الكفاح الوطني :

— قاومت الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨–١٨٠١ وتمثل ذلك في المقاومة الباسلة التي قام بها اهالي قرى تفا وعمزين مركز منوف وعشما مركز الشهداء .

— قاومت الاستعمار الانجليزي ١٨٨٢ — ١٩٥٦ م وتمثل ذلك في المقاومة الباسلة لاهالي قرية ونشواي سنة ١٩٠٦ م.

وخلاصة القول ان محافظة المنوفية قدمت لمصر وللفكر الانساني كله مجموعة من العلماء والمفكرين والسياسيين في شتى مجالات المعرفة النظرية والعملية والسياسية ولا زالت تثري الحياة باعلامها ومثقفيها وقادتها .

١ — محمد رمزي : القاموس الجغرافي ج ٢ ص ٢٢٢ .
٢ — ابن مماتي : قوانين التوفيقية ج ١٦ ص ٤٧ .
٣ — علي مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٤٧ .
٤ — محمد رمزي : نفس المرجع ص ١٨٢ .
٥ — ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢٣٧ .
٦ — القلقشندي : صبح الاعشى ج ٩ ص ١٢٧ .
٧ — محمد رمزي : نفس المرجع ص ٢٧٨ .
٨ — الادريسي ص ٢٧٩ .
٩ — معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٠ .
١٠ — د. سعاد طاهر : محافظات الجمهورية ص ٨٨ .

شبين الكوم — مصر — احمد البهي الحفناوي



وحيد الدين بهاء الدين

فيليب لطف الله في ديوانه الأخير

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

* * *

اتاحت الايام للاستاذ فيليب لطف الله ، الشاعر المهجري المعروف ، ورئيس جامعة « القلم » بسان باولو ، ان يصدر باكورته « نسمات الجبل » في مطالع الستينات ، كان لها بلا ريب وقع طيب في نفوس عارفي فضله ، وقادري ادبه .. حتى اذا تطاولت الاعوام تباعا مدركة منتصف السبعينات ، قيض له ان يردف باكورته تلك ، بديوان ثان حمل من الاسماء الطفها : هو « حصاد الايام » .

وقبل ان ينقضي هذا العقد الذي نحن فيه من القرن العشرين ، يظهر لشاعرنا ديوانه الجديد «اناشيد الغروب» ينتصب بشموخ الى جانب شقيقيه .. ليحتل منزلته الخليقة به في الخزانة العربية المعاصرة ..

بهذا كله ، تتكامل شاعرية فيليب لطف الله بملامحها ومشخصاتها ، وتتساوق قيمه التعبيرية والشعورية التي عمل من اجلها سنين طوالا وتتراءى معانيه الشعرية الفنية، من ذاتية الى اجتماعية .. من قومية الى انسانية . من عقلية الى وجدانية ، بصورة اعمق وامثل .

نظرة مستأنية في « اناشيد الغروب » : هذا الديوان الذي بين يدي ، ترينا ان فيليب لطف الله ، كفنان قد تطور وتجدد بالقياس الى ديوانيه اللذين المعت اليهما في استهلالي .. وهل مبعثه الا تتبعاته الثقافية ، واستيعابه للتيارات المعاصرة ، وتفاعله مع الاحداث حتى درجة الارتقاء الى مستواها ..

لكنه كانسان لم يبرح ثابتا على موقفه الايجابي من الحياة . من الوجود . من الاخرين . من القيم . وما الى ذلك . لعل مرده الى تعاظم جراته وتضخم رصيده الفكري والنفسي ، ثم وعيه لما يحتدم قدامه ، ويجري حياله ، من شتى الشؤون والشجون ..

فالديوان عموما ، مستوحى من طبيعة الاشياء .. من واقع الدنيا .. من نزعات الانسان وهمومه وتطلعاته التي لا نهاية لها .. من المجتمع المهجري البرازيلي الذي يعيش في اتونه الشاعر والمغتربون العرب ، وسواهم من الناس واخلاطهم .. والذي تسيره قوى المادة اكثر من قوى الروح ، بفعل شديد من حضارة العصر ..

* * *

حين تطل عبر الديوان على قصائد فيليب لطف الله في الهيام والالهام . في اللوعة والحرقة . في الشوق والحنين . في الذكرى والسلوى ، فانك لتحس بنبضات الوجدان وهي تتسارع ، بشرارات الخاطر وهي تتعالى .. برعشات الاعماق وهي تنتفض ، حتى لتصل الذروة من عنفها وصخبها ، كما لو كان الشاعر ما يفتأ في مقتبل عمره الغض ، وبداية مجابهته مشقات الحياة الشائكة ..

هناك حرارة في التعبير الفني واخلاص في الصور الشعرية .. وهناك تواؤم بين التجربة والصياغة .. وترسل فكري عفوي من غير تلكؤ وافتعال ، احسب انه متأت من الانبهار بعناصر الاغراء والاغواء .. والاستجابة لمشاهد الجمال والجلال .. ثم الانشداد السحري الى رحاب الحب .. هذا الحب الذي لولاه لضقنا بالحياة : ما فيها ومن فيها ذرعا ، ومقتنا اي شيء طوعا واختيارا ، ولما كان لبقائنا معنى ومذاق .. تلك هي العلة الازلية المتصلة اتصالا عضويا بالمعلول ..

هذا كله وغيره لمن الدلالة على ان الحب في الوجود شيء مطلق لا نسبي .. لان مفعوله يسري على الكبير كما يسري على الصغير .. فيداهم الامير والحقير سواء بسواء، ويزهو بالقريب والبعيد، ويزيل الاسوار ويختصر المسافات وبالتالي لا يعترف بالمكان قيدا ، وبالزمان فاصلا ، لسبب او لغيره :

امسي واصبح والجمال ازائي   ينهل في الاصباح والامساء
بمليحة من نور فجر جبينها   سطعت خيوط جدائل الشقراء
فكانها والحسن ملء اهابها   حورية هبطت من العلياء
تختال في برد المحبة والهوى   تفري محاسنها عيون الرائي
ريانة بجمالها ، جذابة   ويح المشوق من القريب النائي
امسي اسير حبيبة غرارة   وضعته بين الشك والاطراء
ولهان تشغله المفاتن جمة   فيتيه بين الدل والاغراء
ما حيلتي في غادة جبارة   سحرية الحركات والاهواء
فتانة بذهابها وايابها   تدميك نبل الاعين الزرقاء
لمن ادخرت الحسن يا امنيتي   ولمن تركت طهارة العذراء

لكن حب الشاعر في اناشيده الوان .. في هذا تفتحه على الدنيا .. وتشوقه نحو المجهول اية متعة رائعة للحب ان لم يكن ألوانا واشكالا ؟ انما دينه هو حب الله والوطن والحياة والطبيعة والمرأة .. وديدنه حب الخير والايثار .. وشعاره حب الحقيقة والمساعدة حتى لاستحال عنده هذا الحب السرمدي ، لاستغراقه في الواقع ، خيالا ومثالا ، يهتف له ، يتسامى اليه .. يحرص عليه بداع من عملية الابداع والتوليد :

حلما اراك بيقظتي ومنامي   يا برعم الحب الندي النامي
مهما بعدت الى الفؤاد قريبة   في كل ثانية اراك امامي
رسما ترافقه البشاشة والرضى   ونجية ذهبية الاحلام
رؤيا يجللها الجمال مجسما   فيها رايت مضلتي وسلامي
مرت فخلت البرق في خطواتها   برشاقة حجلية الاقدام

ثم يسترسل قائلا :

يا غادة نور الصباح جبينها   وجمالها فجر الحياة الدامي
في لحظها شرر المفاتن والهوى   والعين نوفتها محط غرامي
قد غصت في امواجها متفائلا   فغرقت في بحر الجمال الطامي
وبعدت عن شط الحياة لاجلها   ليكون في بحر الغرام حمامي
سبحان من اعطى الكمال لغادة   واختصني بالرسم والالهام
فرسمت ما اوحى الجمال لشاعر   والفن منقاد الى الرسام

ما سلف يعني اكثر ما يعني ان للمرأة نصيبا اكبر في حب الشاعر .. المراة ذات الثغر المتدفق شهدا وعسلا. ذات النظرة النافذة ، النافثة املا وفتنة .. ذات الوجه الزخار رواء وملاحة .. ذات الجمال الذهبي الذي « اعطته الشمس شعاعها وكساه الربيع ببرده المخضل » كما يريد فيليب لطف الله :

شقراء يا ذهب الحبيب وشهده   وربيع نيسان وناضر ورده
الشمس قد وهبتك وهج شعاعها   وكساك مخضل الربيع ببرده
البحر في عينيك موج صاخب   وهواك منبسط العطاء كمده
ابحرت في امواجه في زورق   اطوى بحار محبتي في مهده
حتى بلغت من الحبيب رضاءه   والقلب خفاق كخفقة بنده
الروض زاه من نضارة ثغره   والورد بعض من تورد خده

ويغرق الشاعر عبر اشعاره وافكاره في ايمانه بالحب .. واسترساله في تعداد ردود افعاله ، وتأكيده على الانغمار في لججه ، حتى الذهاب في ذلك كله ، مذهب من يروم الفناء في سبيله .. انه لحب صوفي :

الحب ان يصفو ليسعد عاشقا   والذل في عسف الحبيب وصده
والموت يحلو في محبة هائم   والمجد في شرع الهوى في لحده
من ذاق شهد الثغر في محبوبه   لا شيء يغري طعمه من بعده

اذا كانت ثمة شقراء ملكت على الشاعر لبه وفؤاده فان ثمة سمراء ايضا .. وان شئت المزيد فثمة زرقاء العيون ، وربما خضراؤها كذلك . اما قلت : ان حب فيليب لطف الله ألوان .. كل واحدة منهن توحي اليه بقصيد رائق . حلوة عباراته . رضية موسيقاه . عميقة معانيه .

سمراء يا بغية العشاق والامل   السحر يمرح بين الثغر والمقل
الوجه كالصبح ريان ومنبلج   والريق نكهته احلى من العسل
القد كالقصب الزاهي تمايله   والشعر منهدل الانوار كالشعل
بحر من الحب مهتاج ومرتفع   وقاك ربي من الانواء والزلل
العين ترسل من انسانها غزلا   الى القلوب فتدعوها الى الغزل

ويقول ايضا :

سمراء حسنك فرد لا مثيل له   قد صار بندا تخطى مضرب المثل
انت الحياة وانت الشعر اجمله   وانت ملهمتي للشعر والغزل
العمر يمضي وحبي دائم ابدا   وهو الرفيق الذي يبقى الى الاجل

وله في قصيدة اخرى :

عيناك زرقاوان لونهما   بحران موج الحب بحرهما
كم مبحر قد ضل في لجج   لم يستقر لبانه بهما
ولكم تخطى القفز مندفعا   كي يبلغ المكنون طيهما
لغزان في دنيا الهوى بقيا   ما زال عجزا حل لغزهما

هكذا الشاعر في ديوانه هائم في دروب الحب .. ظامىء شوقه . مشبوب وجدانه . مشحوذ خياله، متداع فكره ، يمثل امام هياكل الجمال آنا فآنا ، لا ينشد غيره ، ولا يرتوي منه ، كفراشة حائرة ابدا ، وحائمة حول الاشجار والازهار بلا قرار .. لا يغريها الا لذة التواصل الروحي وامتصاص الرحيق تارة ، ولا يدعوها الاالانجذاب الصوفي التلقائي تارة اخرى ..

وما حيلتي والحب برح مهجتي   بفاتنة قد شوقت كل ناظر
فاصبحت لا ادري الى اين انتهي   ولست على صد الحبيب بقادر
كاني مع الايام اجتياح لجة   ساقطعها والشوق عون المسافر
يشق عباب الماء زورق عاشق   وتطوي بحار الحب احلام عابر
تنير سبيلي من ضياء جبينها   وتدفئني من وصلها؟ بالمجامر
ولاحت لنا شمس النهار بنورها   فكان تقانا نجمة للخواطر
فما العيش الاالحب والحسن والوفا   وما الحب الا للعيون الفواتر

على اية حال ، اكاد اجزم ان اكثر قصائد فيليب لطف الله ، في الحب والمجد ، والجمال والطبيعة ، ذات مستوى حسن شكلا ومضمونا ، فما ان اتلو قصيدة جميلة ، حتى يباغتني غيرها اجمل منها ؟! حسبي ما تطرقت تحليلا وتعليلا الى بعض منها ، وحسبي الماعا الى بعض اخر ك « فجر الحب » و « شمس الحب » و « البرتغالية الحسناء » و « حب الام » هذه التي ابدع بها الشاعر ايما ابداع ، فيسوق :

سبحان من ابدع الاكوان اعطاك   برد الجمال وكنز الحب اولاك
يا نعمة الله بـ لـ يا خير والدة   فاضت عطاياه ما جادت عطاياك
يا أم اعطيتنا للحب مدرسة   ان السعادة ومض من محياك

يا ام انت جمال الكون اجمعه … وانت محوره بل قلبه الشاكي
المر يحلو اذا ما الحب مازجه … وانت كالشهد ما اشهى واحلاك
ان كان للناس اعمال تخلدهم … ففي النعيم بدار الخلد مثواك
تفنى العظائم والدنيا فمبدعها … يا منبع الخير للانام ابقاك

* * *

احسب ان من يوغل في قراءة معظم قصائد الديوان، لا بد ان يرى ـ كما رايت ـ ان فيليب لطف الله ، بمهماز من تربيته الفطرية هذه التي اعتمدت البساطة والتفاؤل والاقبال على الدنيا ، ثم بمهماز من نزعته الحضارية التي تبلورت فيه كنتيجة طبيعية ، لمعاناته ومزاولاته في المحيط البرازيلي المتعقد المتجدد ، قدر له ان يزاوج بين نسبه كشخصية مالية اقتصادية ، وادبه كشاعر فنان ، ويوفق بينهما توفيقا شريفا مثمرا .. في اطار من الايجابية :

وما اسعد المال الكثير مكدسا … وليس الغنى بالرزق والمال والتبر
وان الغنى بالعلم والخلق والحجى … وفعل كريم يرتدي حلل الطهر

الا ان الثروة الوفيرة التي تهيأت له عبر اكثر من نصف قرن ، باعماله الانتاجية وجهوده الموصولة ، لم تستطع ان تصده عن سبيل الادب ولذته القصوى المستدامة او تثقل فيه روح الانطلاق على اجنحة الشعر والفكر ، والتحليق في آفاق الحياة النابضة بالاشواق والاهواء ..

فكان غنائي في الحياة قصائدي … ولاحت على الافاق الوية النصر
خلقت مع الاوتار واللحن والهوى … فلا عجب ان سرت في موكب الشعر
وبدلت الايام اهداف تاجر … فرصع صدر الشعر بالماس والدر
والبسه ثوب البيان منمقا … اطل على الايام اطلالة البدر
فمجد الفتى بالعلم والجد والحجى … وخير الورى من عاش للعلم والبر

كما ان هذه الثروة لم تستطع ان ترتفع بفيليب لطف الله الا الى مستوى ذلك الرجل الانساني الذي يرهص بالاخلاق والقيم ويساعف الادباء والشعراء المعوزين ومن اليهم في مطالبهم وتحقيق بعض من رغباتهم ، ثم يشارك في دعم المشروعات العامة النافعة ..

فاستمع اليه في قصيدته « خطوة في الثمانين » :

دنيا تدور بنا في كل معترك … وكل حقل وتغري الناس بالكسب
تعطي وتحرم بعض القوم درهمها … وجامع المال ضم المال للنسب
كأنما المال في اكياسهم شرف … هل للثراء علاقات مع الحسب
ما المال الا اداة نستعين بها … لصنع خير ودفع الفقر والكرب
يا جامع المال والاعمار مدبرة … لا تحجج الفقر في عين من الغضب
فباذل المال يعلي قدر باذله … ومانع المال داء الذل والجرب

ذلك مذهبه لم ينحرف عنه ويخرج عليه :

فيض من الخير يجري من مناهله … فيغمر الارض بالاقبال والذهب
منه اكتسبت سماح الكف في سعة … والجود مدرجة للقدر والرتب
الجود ارفع ما في النفس من شيم … واكرم الخلق في الدنيا هو العربي

وكذلك يفعل .. بالرغم من تحولات الزمان ، وتعدد الخنادق وتصادم الاراء والاتجاهات ، وتضارب المصالح والمنافع في ظلال هذه الحضارة المادية المعقدة ..

اليس هو القائل في السالفات من الايام :

على الاعمال تزدحم البرايا … وحاجتها الى خبز وماء
وما الباقي سوى فضلات عيش … واطماع سرت في الاثرياء
اذا اثريت لا تنس جياعا … فان الخلق يسمو بالسخاء
وان تسعد بعيشك كن رؤوفا … على من عيشهم عيش الشقاء
فلا شيء مع الايام باق … كذاك يزول مجد الاغنياء

هكذا تتجسد نظرة الشاعر الانسانية وتنكشف اصالته :

ما المال الا خادم او آمر … بالجود تبني مجدها العظماء
مجد يقوم على المحبة والوفا … وعلى السخاء الدرهم البناء
واجعل سخاءك قدوة لبني الورى … ان الحياة محبة ووفاء
وابذل تخفف من تعاسة بائس … فمن البخيل الذل والضعفاء
لو تنصف الايام بين حظوظها … لتساوت الاشخاص والاشياء

من هنا فان الشاعر بالرغم مما ملك ويملك ، لا يؤمن كما يبدو من خلال ديوانه بالسعادة التي يخلقها المال والجاه . فالمال لا يحقق السعادة ، بقدر ما يورث الشقاء والقلق . انما السعادة ـ ان وجدت ـ هي في راحة النفس وصفاء البال وهدوء الحال وخدمة الاخرين :

ان السعادة سرها في نفسنا … وتحيرت في كنهها الحكماء
لا تبحثن عن السعادة انها … برق تطوق عنقه الظلماء
الناس تبحث عن مقر وجودها … هي ان اردت محبة وعطاء
خاب الذي يبغي السعادة كلها … بعض السعادة في الحياة شقاء

لقد عرضت لفيليب لطف الله تجارب كثار صقلته ، وحوادث جسام ملأت جعبته عبرا ودروسا ، حتى انه بعد ان راى السعادة وهما يخدر المرء ويرطب مزاجه ، يحاول ان يكشف من حقائق الحياة وابعادها ، واسرارها ، ما سلف ان اتى عليه الاقدمون من الفلاسفة والمفكرين ، في مباحثهم العلمية المتنوعة التي شيدوا على اساسها هيكل الثقافة الانسانية ..

وان حياتنا تجري … كنهر منها يجري
« فمن نهر الى بحر … ومن بحر الى نهر »
وفينا نسمة الخير … وفينا نسمة الشر
ونبحث عن غوامضنا … وفينا غامض السر

الى جانب ما جبل عليه فيليب لطف الله وقر في كيانه ، فان هذا الذي نوهت به استقراء واستنتاجا ، جعله يشحن مضموناته الشعرية بلمحات انسانية مضيئة ، ودفقات عاطفية وهاجة ، وومضات فكرية اصيلة ..

اسائل نفسي وشيخوختي … وماذا رايت بهذا الوجود
رايت الحياة تغذي الحياة … وكل حياة اليها تعود
ولا فرق ما بين احيائها … عناصر ترب وماء ودود
تساوت معادن انواعها … فنوع الكلاب كنوع الاسود
وكل قديم الى جدة … وصنع القديم كصنع الجديد

وايضا يتابع :

وان العباد عبيد الزمان … تسير البرايا مسير العبيد
وان التراب مهود العباد … وذاك التراب تراب اللحود
رايت الممات بقلب الحياة … وكل حياة اليه تعود ...

وعلى هذا المنوال يروح الشاعر منطلقا ومؤكدا :

وداعا ايها الدنيا وداعا … الى الابحار هيا نا الشراعا
الى الارض التي تحنو علينا … وتقري من بيادرها الجياعا

الى الطين الذي منه جبلنا ... وقد بسطت لنا الام الذراعا
قطعناها مع الايام ركضا ... وشوق الام يرجعنا سراعا

★ ★ ★

للطبيعة حظ في هذا الديوان . فلا بدع ، أليس الشاعر ابن الطبيعة البار ؟ فقد ولد بقرية « بسكنتا » بلبنان ، وقضى طفولته البريئة فيها ، حيث المروج الخضر والجبال الشم وترقرق الامواه والسواقي والسماء الزرقاء والمناخ الصحي ..

ها هوذا يصف موطنه الاول ، وموئل رجائه ، ومنبع الهامه :

ترعرعت في لبنان في سفح شاهق ... حباني من انسامه منعة الفجر
ومرت بي الاعوام في كنف جنة ... اطير باجواء تعز على النسر
اقبل ثغر الماء من منبع الهوى ... كقبلة مشتاق الى غادة بكر
فكوثره يجري رحيقا مجلدا ... يسمره حب كملتهب الجمر
ويطربنا شلاله في نشيده ... كان هدير الماء اغنية البحر

ثم لا انسى تعود الشاعر الارتماء بين احضان الطبيعة وهو في مهجره البرازيلي واخلاده الى سكون المصايف والمشاتي في كل فرصة تتاح له ، وتلائم مزاجه واحساسه ، كما يطرح عنه اعباء الحياة ، ويترك متاعب الحضارة وراءه ولو بعض الشيء ، اذ ينعم بالماء والخضراء والوجه الحسن كما يقال ثم يؤوب الى قواعده سالما غانما وقد رقت مشاعره وتلألأت افكاره ، وتفجرت قريحته ..

ما اجمل العيش قرب الماء والشجر ... كلاهما بهجة الاكباد والنظر
الماء يجري على لحن يردده ... لحن السلام ولحن الحب للبشر
والطير تصدح في الاغصان منشدة ... حرية العيش بين الماء والزهر
مناظر يخلب الالباب منظرها ... ونعمة من عطايا الله والقدر
جلست في قربها اجلو محاسنها ... لاشبع العين من سلسالها النضر
فقلت لا كان للدنيا حضارتها ... فلذة النفس بين العشب والبقر

ثم لا يتردد فيليب لطف الله في الدعوة الى العيش في رحاب الطبيعة والاندماج فيها بعيداً عن ضوضاء الحضارة ومهالكها :

يا جمالا لا ينتهي في نعيم ... كل صب يبغي الجمال واهله
عيشة المدن زحمة وعراك ... وفساد الهواء افتك علّه
ان في البر والحقول عطايا ... يغمر العيش بالسعادة كله

تطالعني في الديوان قصيدة « الحارس الامين » وهي وصفية بارعة الى ابعد مدى . غير ان الطابع الغالب على مضمونها ، هو الطابع الانساني . والشاعر في لوحته الفنية التي يعرضها لنا ، يصور الكلب الموصوف بالوفاء لصاحبه كيف يعدو ويثب في حركاته ، ويحمي البيت ويرافق اهله ويتشممهم ويحوم حولهم ملاعبا طورا ومعاتبا طورا اخر :

يعلو ويهبط بالحسنى يداعبني ... لو يحسن النطق بث الشوق بالعتب
يجري بسرعة محبوب لعاشقة ... يجول في خفة تدعو الى العجب
يطوق الدار يحميها بسطوته ... ويلتقي اللص بالانياب والغضب
يرافق الولد مسرورا برفقتهم ... ويستغيث بهم في ساعة السغب
ويرتمي وفراش العشب مرقده ... يمرغ الجسم بين الزهر والعشب

ويسترسل الشاعر مادحا هذا الكلب الامين :

مهذب يتلقى امر صاحبه ... طوع البنان بتهذيب وفي ادب
مجاهد في سبيل العيش مندفع ... لخدمة وسوى الاهمال لم يصب
هو الامين المجلي في صداقته ... سلاحه الصدق لا يغريك بالكذب

كذلك تطالعني في روضة الديوان قصيدة اخرى آية في الروعة والسمو استهوتني بعذوبة معانيها وجلالة افكارها ، ورشاقة موسيقاها ، ثم بعظمة ما بها من حنان مجسم ، ومحبة مستعرة ، وتفاؤل مجنح .. تلك هي قصيدة « جمال العمر » وبها يقول : وما اكرم ما يقول والطف في أسرته :

العمر ادبر والاعوام مقبلة ... وليس يزعجني في عيشه الهرم
اعطيت عمرا طويلا من محاسنه ... رفيقة لحقوق الزوج تحترم
احببتها لجمال في شمائلها ... تسمو بعفتها الاخلاق والشيم
عمر تقضى برغد العيش في نعم ... حب دعائمه الاخلاص والكرم
وقد حسونا كؤوس الحب صافية ... وصادق الحب بالامال يزدحم

حتى يدرك الغاية :

باق على الدهر في ولد وفي اسر ... وفي تراث جمال العمر يختتم

★ ★ ★

واود ان احيل القارىء الكريم على نص هذه القصيدة الحية الناطقة ليقراه كاملا بنفسه في الديوان .. لعله ان يشاركني في ما توخيت وذهبت اليه .

★ ★ ★

اما بعد ..

فهذه تقدمة اسوقها تلبية لنداء الواجب الادبي الذي كان ينتظرني ووفاء لمذهبي النقدي التحليلي الذي التزم واحاول الالتزام به ..

لئن كان الحكم على العمل الادبي الفني يحتاج الى ذوق ، كما يريد الشاعر الانكليزي : بوب ، فارجو مخلصا ان اكون قد توسلت بذوقي الخاص ومذهبي النقدي في القاء بعض الانوار على اكثر مطاوي هذا الديوان ، الذي كان وما ينفك لصاحبه الصديق الكبير فيليب لطف الله رحمه الله مكانة مرموقة في عالم الشعر والفكر ، ومنزلة عزيزة في نفسي .

ومن الله كل توفيق ..

بغداد ... وحيد الدين بهاء الدين



اميل توفيق

لمحة عن الحب الرومانسي عند الأقدمين

بقلم اميل توفيق

* * *

● يخطىء من يظن ان الحب الرومانسي ظاهرة حديثة العهد . فقد عرف ذلك الحب منذ ما قبل العصور الوسطى ، في امثلة سجلها التاريخ الادبي . ولكن الشيء المؤكد بشأنه انه ظاهرة حديثة ، ان الحب الرومانسي اعترف به كقاعدة صحيحة للزواج . ولكن هذه القاعدة لم تصبح شائعة ، حيث انه يقوم الزواج في معظم البلاد على اعتبارات اخرى ، ليس من بينها الحب العاطفي الا نادرا .

● ان الرومانسية تضفي على الحب الوانا زاهية جميلة .. تماثل الوان الطيف المتدرجة ، وتكسبه صفات ليست في الاصل من صفاته ، وتنسب له احاسيس ومشاعر فيها الكثير من الوهم والزيف . وكلما كان الحبيب بعيد المنال ، فان هذه المشاعر والاحاسيس تشيع في القلب بقوة وتزداد حرارتها فاذا ما تم الزواج اكتشف الزوجان ان تلك المشاعر صارت باهتة ، وان الاوهام البراقة قد تلاشت .

من اجل هذا نجد في كثير من الاحيان ، ان الزواج المبني على الحب الرومانسي لا يدوم لفترة طويلة (الا القلة النادرة) ، كما يحدث مثلا بين غانية ونبيل من النبلاء ، او بين فتاة عريقة المحتد وسائق سيارتها . ذلك لان الحياة الواقعية تذيب الاوهام ، وترجع بالازواج الى المألوف عند سائر الناس ، ولانهم يكتشفون انهم غرباء بعضهم عن بعض من حيث تباين الاذواق وتفاوت العقول والافهام ، واختلاف الثقافة والنشأة والبيئة .

● من اجل ان نفهم ظاهرة الحب الرومانسي لا بد ان نتتبع تاريخ الحب والزواج . كتب « برتراند راسل » كتابا عن (الزواج والاخلاق) متضمنا ذلك التاريخ . وكان بدؤه بمفهوم الزواج المسيحي ، في العصور الوسطى وهذا المفهوم لا يجعل الزواج مرتبطا باية اثارة جنسية . وحتى قبل هذه العصور نجد الزوجات والمربيات في البيوت والقصور (لدى الاغريق والرومان) مجرد معينات او مساعدات ، فهن لسن بمنزلة الصديقات للازواج او الاليفات المحببات لهم . لم يكن للحب الرومانسي اي دور في الزواج . بل ان الزوج في تلك الايام كان يرى من حقه ان يسعى للوصول الى علاقة خارجية تعوض العلاقة المعتادة الفاترة التي يجدها في بيته . وهو لا يرى في ذلك ، ولا يرى المجتمع ايضا .. ان الاشباع الجنسي الخارجي مما يعيبه او يعتبر خطيئة من الخطايا ، او انتهاكا تعاقب عليه الدولة .

● وفي العصور المظلمة كان الحب بمثابة هوة سحيقة ، فعلى الرغم من ان الكنيسة كانت تعلم ان الجنس خطيئة ، فان بعض قادتها وقعوا في حمأتها . كما حدث للكثير من الرهبان والاساقفة حتى انه بعد زمن البابا « جريجوري السابع » حدثت حركة تطهير كنسية تغيرت او تعدلت بسببها بعض الاراء والقوانين من ناحية العزوبة والزواج . ولم تكن آراء الكنيسة بهذا الخصوص ــ وبصفة عامة ــ الى جانب اعلاء مركز الزواج او السمو بقاعدة الحب .

● اما النقلة الى احترام الحب ولفت الانظار اليه فقد حدثت بسبب القصائد الشعرية واغاني المطربين .

لقد اثرى وجدان الناس بالحب ، الشعراء والمطربون ،

فوجد الناس انه شيء ممتع وثمين وصعب المنال .. وان تكريس الحياة لهذا الشعور الملتهب انما يقترب من العبادة . فعلا تحول النظر اليه ، فاحترموه ووقروه بعمق . وبعكس ما فعلته الكنيسة بهذا المفهوم حيث حطت من شأنه ، اعلى الشعراء والمنشدون قيمته ، ونبل مقاصده .

واذا كانت الكنيسة لم توفق بين العلاقة الطبيعية ، ومشاعر التقديس والاحترام للمحبوب ، فان الحب الرومانسي ــ كما تغنى به الشعر الغنائي ، وصورته

رؤوس الشعراء ، كان حبا نقيا يجب ان يصان من كل ما يلوث ، وان يظل طاهرا من كل ادران الجنس .

● كان الجو السائد ينمي العنصر الروحاني ، بحيث يسود كل المشاعر الاخرى ، وأن يجعل الرباط الطبيعي ابعد من ان يقترن بذلك الشعور القدسي ، الطاهر العفيف .. ومن هنا اتسعت الهوة العميقة بين شكل الحب المثالي، والعلاقة الجنسية .. حتى ان هذه الهوة لا يزال عمقها كما هو عند الكثيرين الى اليوم ، فنحن نرى الموقف الجنسي لبعض الرجال يتصف بهذه الصفة ، صفة التقديس للمرأة ، وعدم استطاعتهم مقاربتها جنسيا ، لهذا يقسم بعض الرجال النساء الى قسمين كبيرين : القسم الذي يرونه اهلا للتوقير والاحترام والتقديس .. والقسم الذي يرونه مؤهلا للمعاشرة الجنسية .

وهذا المفهوم عبر عنه بالتصوير الرسام وات في لوحة رسمها وسماها « الحب المقدس والحب الدنس » .

وكثير من الرجال يحسون هذا التناقض عندما يتم زواجهم بمن احبوهن ، وتكون النتيجة هي الفشل لعدم قدرتهم على التوفيق بين موقف الحب والموقف الجنسي.

وبمنطقهم فانهم يتساءلون : كيف تقف المرأة امام (هيكل الرب) وهي مغموسة في حقارة الجنس ؟ فالمرأة في نظرهم يجب ان تبقى طاهرة عفيفة وعذراء .

● ويشير برتراند راسل الى ان الشعراء والمطربين يعبرون عن صفاء الحب ، وروحانيته بعيدا عن الجزاء ، او اظهار ما يقابله من مثوبة مادية او جسدية ، بظاهرة اخرى هامة ظهرت في اوروبا هي الحب كما يعتنقه الفرسان . فمن الفروسية والنبل ان يبتعد الحب عن كل اشباع جنسي . وبينما كانت الفروسية تمجد الحب، فانها لم تستطع ان تجعله مقترنا بأية متعة جسدية .

لقد نما الاعتقاد بأن هناك ميلا سماويا يجذب فتى بعينه الى فتاة بعينها . فكل انسان هو نصف لا يمكن ان يكمله الا نصفه الاخر الذي عينته له العناية الالهية .

وكانت هذه الفكرة تراود بعض الكتاب القدامى في تأملاتهم وكان للفكرة صداها في اوروبا الغربية منذ القرن الحادي عشر . وهو الصدى الذي اشاع الحب الرومانسي ، ولم يكن الحب يرمي الى الزواج .. كل قصص الحب في تلك العصور انما كانت تدور حول سيدات متزوجات احببن . وفي حين ترى الزوجة تطيع رجلها وتتكفل براحة ابنائها وخدمة اسرتها ، نرى فارس الاحلام يطيع محبوبته طاعة عمياء . كان الحب هو خارج نطاق الحياة الزوجية ، وظلت هذه عقيدة فرنسا في ذلك الوقت . اما في انجلترة فقد حاول احد الكتاب وهو « ادموند سبنسر » في الجزء الاخير من كتابه Faerie Queene ان يوفق بين الحب والزواج.

● كان الحب بين الفرسان لعبة عظيمة ، لها قواعدها واصولها ، وميثاق شرفها . وكان هذا الميثاق اساسا لما سمي « بمحاكم الحب » التي انتشرت في انحاء اوربا .

ولئن كانت هذه اللعبة قد فصلت بين العلاقة الطبيعية ، والحب العاطفي ، واساءت الى فهم الطبيعة البشرية ، وتعسفت في الناحية العملية لتطبيق ما هوطبيعي.. فانها استطاعت ان تنمي في الرجال عاطفة التوقير للنساء واحترامهن ، وهي بهذا قد حولت النظرة التي كانت تنظر بها الكنيسة بصدد تعاليمها حول الحب والزواج .

ولكن الاتجاه قد نما وتطور بالحب ، فهو اذا لم يكن افلاطونيا ، فان الاتجاه بالحب صار شاعريا نبيلا ، والنظرة الى المرأة لم تعد تقر تلك الهوة العظيمة بين الزواج والحب .

● بلغ الحب الرومانسي ذروته ، في الحركة الادبية الشعرية التي مثلها الشاعر شيللي في القرن الماضي ، كان شيللي قد اكتشف في الانسانية وفي المجتمع الذي يعيش فيه ، الفكر الخيالي ، والشعور الدافق ، والعاطفة الجياشة .. وهذه جميعا تفتقر الى من يعبر عنها ويفصح عما في مكنونات الضمائر ، والوجدانيات المشحونة بالاحاسيس النبيلة الرائعة . كان يرى ان هذه جميعا يجب ان يعبر عنها بالشعر ، ولذلك راح يشن حملاته ضد القيود البالية التي تقف دون التحرر ، كما راح يهاجم الاجراءات البوليسية والحملات التعسفية التي يؤديها سدنة الاخلاق ضد المشاعر الطبيعية . ولم يجد سببا واحدا يجعل كبت العواطف امرا مشروعا. تغنى شيللي بالحرية العاطفية في شعره ومجد الحب، والنبل والشجاعة الخلقية المقترنة بالصراحة في ابداء الشعور الفياض .

ويعتقد الكاتب « كينث ووكر » ان شيللي وقع في خطأين : الاول هو اعتقاده او تخيله ان الحب يمكن ان يكون متحررا تماما من كل قيد ، والخطأ الثاني هو عدم ادراكه انه لولا تلك القيود والسدود ، ما كانت تبرز رسالته الشعرية ، او رسالته التحررية . فانه في الواقع كان مدينا لكل التقاليد السائدة ، بتطوره الوجداني والخلقي ، وانماء مكانته كمحرر لمجتمعه من القيود الباطلة .

● ان الحب الرومانسي هو في الواقع من خلق الشعر والفرسان . وقد صاغت قوالبه الوجدانية كل ما كتب الكتاب من مسرحيات او روايات او قصص . وما ظهر منها في منتصف القرن الماضي . والواقع ان ما دعم هذا الحب هو ما ظهر من احتدام الصراع بين الجيل القديم وجيل الشبان .

فالكبار يرون ان الزواج يجب ان يتطابق مع نظرياتهم، والشباب يبتغون ان يتزوجوا وفق اختيارهم هم انفسهم . وبالتدريج كان الشباب الى جانب ما صاغه الشعراء والمطربون والروائيون من مفاهيم جريئة .. تتمشى مع الطبيعة البشرية وحرية الاختيار .

● يكتب « هافلوك اليس » ـ العالم البيولوجي

صامتة

يا قصة صمتت دارت على الورق
حوارها لغة الاقلام والحدق

كان اللقاء بها فيّ روض اسطرها
وفي جنان من الاحلام في الغسق

لا يستطاع لقاء في سوى نظر
سر وشارة تسليم لمنطلق

تغدو الدفاتر فيما بيننا رسلا
في جوفها سقر حرى من الحرق

كانما كل حرف خازن لهبا
يبقى مدى الدهر يوري اطيب العبق

بدت وشبت ولا ندري نهايتها
وخلدت وهي مازالت على الورق

السعودية
علي دمر

الشهير ـ ان الشاعر « اوفيد » كانت له تاثيراته العميقة على الناس وحتى على كبار الكتاب . اوفيد هذا كتب مقالة عن « فن الحب » وكانت لها ترجمات الى الانجليزية تاثر بها في انجلترة شكسبير ومترجمها نفسه « مارلو » اما اوفيد الذي كانت له شهرته الادبية .. فقد صاغ مفهوم الحب بحيث رفعه من مجرد كونه غريزة جنسية ، او واجبا مفروضا . وقد قرنه بانسانية راقية مهذبة ، وجعله علاقة مدنية ذات ابعاد واعماق تستاهل التنمية الوجدانية . وهذا ما دعا الكاتب « بوكاشيو » ان يضع بين ايدي الشباب مقال اوفيد عن فن الحب ، ليتعلموا ويقيسوا ويتهذبوا . ومع ذلك فظلت الفكرة القديمة « تقديس الحب وتدنيس الجنس » تراودهم ، فاعتبروا الحب خارج نطاق الاخلاق . وصحيح ان اوفيد قد مجد الحب ، ورفع من قيمة العاطفة ، ولكنه حتى ذلك الحين ، لم يقرنها بالاخلاقية التي تفترض وجوب الحب داخل نطاق الزواج .

● اما بوكاسيو الاديب الايطالي الذي برز ككاتب وشاعر في مطالع عصر النهضة .. فقد جاءت كتاباته لتؤكد لمساته الاخيرة للمراة الجديدة التي تخلصت من قيود العصور الوسطى .

كان هو اول كاتب منذ العصور اليونانية والرومانية يهمل الجانب الاخلاقي التقليدي المتزمت في سلوك شخصياته النسائية وذلك بابراز الجانب الحسي فيهن .

ركز قصصه على نساء الطبقة الوسطى التي خبرها وعرف خباياها واسرارها .. انك لترى نساء بوكاشيو وهن سائرات في فلورنسا .. وقد لوثن اقدامهن بالماء والطين ، ان الحس لديه كان هو اساس الواقع .. والواقع لا بد ان يظهر من خلال الحس وتلقائية السلوك . وبدون هذا الواقع لا يمكن التمتع بالخيال .

كانت كتابات بوكاسيو تتراوح بين الشعر والنثر وفقا لما يتطلبه المضمون وخاصة في مجموعته القصصية المعروفة باسم « الاسكاميرون » اذ كانت قصصه تبتعد كثيرا عن ذلك الجو الحالم الاثيري الذي اغرم به معاصروه ، مثل دانتي وبترارك .

ويقول النقاد : اذا كان دانتي كتب الكوميديا الالهية فان بوكاشيو قد كتب الكوميديا الانسانية ، حيث الجنس يلعب دورا لا يمكن تجاهله .. وهو بذلك وضع نهاية للعصور الوسطى التي كانت تعتبر المراة اصل كل خطيئة وشر .

لقد ساهمت قصص بوكاشيو في فتح الباب على مصراعيه لنسمات عصر النهضة المنعشة . وانتهى بذلك عصر التزمت الفكري والمثالية التقليدية، وجاء عصر الايمان بالانسان ولم تعد المراة ذلك المخلوق المنزوي الشاحب .. ولكنها بدات تبرز كشخصية مستقلة كما اوضحها ـ بعد ذلك ـ الكاتب المسرحي « هنريك ايسن » في مسرحيته « الدمية » .

ان التطور والتقدم في الفنون والعلوم ، وتكامل النظرات عند الاجتماعيين والحضاريين والمشتغلين بالفلسفة .. بل عند الاخلاقيين ايضا .. بل ان الحرية التي جعلت المراة تشارك الرجل في العمل وفي الحياة .. كل هذه قد جعلت الهوة بين الحب والزواج تضيق الى حد كبير . والامر كله مرجعه الى حرية المجتمع الذي يكفل للمراة حقوقها .. دون ان تفقد في غمرة هذه الحرية طبيعتها التي جبلت عليها .

مراجع البحث

١ ـ كتاب فيزيولوجية الجنس ومضامينه الاجتماعية ـ تاليف كينث ووكر ـ بنجوين ١٩٤٢ ـ وبه مقال بعنوان الحب الرومانسي .

٢ ـ الفصل السادس (فن الحب) من كتاب : الجنس في علاقته بالمجتمع ـ تاليف هافلوك اليس .

٣ ـ فصل عن الشخصية من كتاب « سيكلوجية الشخصية » لمؤلفه B.Notcutt

٤ ـ جريدة الاهرام ـ باب دنيا الثقافة ـ اكتوبر ١٩٧٩ .

مصر الجديدة
اميل توفيق

الدكتور ضياء الدين ابو الحب

وجه من وجوه الانسانية الطيبة
والروح القومية العربية المخلصة
١٩١٣ ـ ١٩٨١

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

* * *

كانت سنابل الحياة تتساقط حباتها الواحدة تلو الاخرى، بعد ان حصدتها مناجل الردى ، بأيدي مسببي الحرب العالمية الثانية . وتناثرت هنا وهناك اوراق شجرة الانسانية الوارفة ، وماتت على اغصانها ثمراتها اليانعة . ثم تدحرجت تبحث عن مستقر لها ، لتطمئن به من قسوة اقدام المحاربين ، وتتوارى بعيدا عن دخان قنابل الطغاة الذين بدأت حراب بنادقهم المشرعة يخطف بريقها الابصار. ودوي مدافعهم يملأ ويصك اسماع الكبار والصغار .

وكنت يومذاك نزيلا في لبنان . ارى في شوارع مدنه وقراه ، دموع اليتامى من الاطفال الابرياء ، واسمع عويل الارامل المشردات وآهات التائهين الجائعين التعساء .

اما في الوطن العراق ، فقد قامت ثورة عامة سنة ١٩٤١ ، على الدخلاء والعملاء والجبناء الذين كانوا يتقاسمون خيرات البلاد ، وغذاء الشعب ، وينعمون في مصايف لبنان ، ومرابع الغرب ، والفئة الصابرة العاملة من ابناء الرافدين ، ودنيا العروبة تلاقي القتل ، والشنق، والتعذيب ، والتهجير ، والحرمان .

وكنت يومذاك لا ازال في مطلع شبابي ، لا اعرف من الدنيا الا الكتاب سميرا ، ولا غير الادب صاحبا وخليلا ، اعيش في صراع مع قسوة الحياة والواقع ، واتطلع الى امل المستقبل ، واحلم بالغد المشرق الوضاء !!

وكانت بعض الاسماء الادبية والشاعرة تستهويني وتشدني الى حلقاتها وندواتها ومجلاتها وصحفها وكتبها . احلم باليوم الذي اكون فيه مثل اصحابها يذاع اسمي ، وينشر نتاجي ، وتحتل مقالاتي واشعاري ما تستحقه من مكانة على اعمدة الصحف والمجلات . ومن تلك النجوم اللامعة التي كانت تتردد اسماؤها المعروفة المشهورة ، الشبيبي والرصافي والزهاوي والجواهري ، والصافي ، والاخطل الصغير ، وبدوي الجبل وعمر ابو ريشةوابراهيم طوقان ، لان لهم مساهمة في القضايا القومية العربية ، والشؤون العراقية الوطنية .

ومضت دوامة الحرب تدور ، وبقيت في البنان مدة من الزمن أجمع بين الدراسة والاستجمام ، والمساهمة الصحفية والادبية في مجلات وصحف لبنانية ، وعراقية معروفة كالاديب ، والعرفان ، والبيان ، والهاتف ، والعقيدة .

وفي تلك السنوات المؤلمة ، ظهرت مجلة كبيرة الحجم غزيرة المادة ، متنوعة المواضيع ، جميلة الصور ، اشرف على تحريرها الكاتب والمؤرخ اللبناني الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك . وأمدها جملة من الكتاب والباحثين والمدافعين عن الحريات والانسانية بمقالاتهم وابحاثهم .

وكانت هذه المجلة اسمها (المراحل المصورة) ، وهي مجلة اسبوعية مصورة . ظهرت فيها فجاة مقالات طريفة عن القومية العربية ، وعن شعرائها في العراق باسلوب لطيف جذاب متسلسل الافكار ، واضح الصورة ، رشيق العبارة ، بين الهدف ، كريم الغاية . بقلم طالب عراقي من طلاب البعثة في جامعة بيروت الاميركية ، وهو المرحوم (ضياء الدين ابو الحب) .

وقد قررت التعرف اليه ، والاتصال به ، عن طريق شاعر الانسانية المعذبة المرحوم الصديق المهاجر (السيد احمد الصافي النجفي) . وكان اللقاء في مقهى (ابو عفيف) بساحة البرج ، يوم زهوها وجمالها ، وغرائب الحياة فيها، بمختلف انماطها ، واشكالها ، ومضامينها .

واجتمعت به بعد ذاك مرة ومرتين وثلاثا والتقينا بعدها في مكتبة الجامعة التي كان يدرس فيها . او في باحة من باحاتها الواسعة ، تحت أشجارها الخضراء العالية ، نتحدث ونسمر ونقرأ الابيات والقصائد الجديدة لشعراء الوطن العربي .

وبعد اشهر من التعارف واللقاء ، انشغل كل واحد منا بما كان يشغله من دراسة وقضايا شخصية . وصعدت للجبل للراحة والاستجمام . وعدت بعد موسم الصيف ، اسأل عن صاحبي في مطلع العام الدراسي الجديد ، فاذا الوجوم مخيم على وجوه زملائه واصحابه . واذا (الصافي النجفي) لم يكن في مجلسه المعتاد ، حيث تناثر القوم ، وطوردوا . وكان نصيب ذلك الاديب المتحمس النشط الذي احببته وصادقته لطيبة روحه ، وسماحة نفسه ، قد أخرج من الجامعة الاميركية ، بحجة التظاهرة التي طافت شوارع بيروت ، من قبل الطلبة العراقيين ، الذين ايدوا وساندوا ثورة (مايس) وحملوا على اكتافهم الشاعر (احمد الصافي النجفي) وهو يردد وينشد بعض اشعاره الوطنية والقومية امام السفارة العراقية .

وقد كلفته التظاهرة غاليا ، من السجن والمطاردة والحرمان ، من قبل السلطات الفرنسية والانكليزية المحتلة . ومنعت عنه اصحابه وزياراتهم له . وهو محتجز بالقرب من بيروت . كما شردت مريديه المحبين، واصدقاءه المخلصين ومنهم الكاتب الشاعر ضياء الدين ابو الحب الذي حرم من مواصلة الدراسة الجامعية ، واعيد الى وطنه العراق ، ثم دخل بعد ذلك دار المعلمين العالية وتخرج فيها سنة ١٩٤٢ .

هذا ويمكننا اليوم على ضوء ما مر بنا من خواطر اخوية عنه ، ان نجمل حياة الفقيد بالمراحل الثلاث التالية:

المرحلة الاولى

مرحلة دراسته الاولية ، وتربيته الثقافية والادبية في محيط (كربلاء) ومجالس والده الخطيب الشاعر المرحوم الشيخ محسن ابو الحب ، وانتقاله الى بغداد طالبا في دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٣٢ ، واتصاله بشباب القومية العربية ، عند ابتعاثه للدراسة في الجامعة الاميركية في بيروت ، وسفره الى الولايات المتحدة ، وبعدها لمصر وحصوله على الدرجات العلمية العالية ، وعودته للوطن العراق سنة ١٩٦٧ .

المرحلة الثانية

حيث اصبح استاذا جامعيا يرفد طلابه بما عنده من غزير المعرفة ، وواسع الاطلاع في ميدان علم النفس وفروعه ومدارسه في كليتي التربية والاداب .

وقد ازداد نشاطه في حقل الحياة الاجتماعية والصحية والنفسية ، والادبية ، وساهم في مختلف الجمعيات ، والنوادي العراقية . واخذ ينشر المقالات ، ويضع المؤلفات ، ويترجم الدراسات ويلقي المحاضرات ، وهو يتنقل من عالم النثر الى دنيا الشعر .

المرحلة الثالثة

وهي انقضاء مدة خدمته التعليمية والجامعية الطويلة ، ومنحه الفرصة للتمتع بحرية وقته ، وراحة جسده وفكره . ليعود الى روضة بيته ، ومسامرة اهله، ومراجعة مؤلفاته واوراقه ومكتبته .

ولكنه رحمه الله لم يهدأ عن العمل ، ولم يكل عن الحركة ، فالتحق استاذا في جامعة البحرين الجديدة ، ومنحها من خبرته الطويلة ، وذهنيته المتفتحة ، وادبه الجم ، الشيء الكثير ، مما جعل قلبه المتعب يتوقف عن حركته ، ففاضت روحه السمحة في بلد عربي شقيق.

.. واخيرا عادت اخت النسور ، تحمله الى وطنه ، كعودة الطائر الى عشه ، رجعت بجسده الى تربة بلده الذي احبه ليدفن فيه . اما روحه فهي لم تفارق يوما بلاده . منذ ان احتضنته صغيرا ، وضمت جسمه اليها كبيرا ، رجع الى ديار اهله ، ومرابع طفولته ، وذكريات لداته ، وخواطر اصحابه .

* * *

ان حياة الصديق المرحوم (ابي اليقظان) الدكتور ضياء الدين ابو الحب في مراحلها الثلاث ، ومحطاتها المتباعدة ، تعطينا اللوحة الرائعة التامة ، الكاملة الصورة، من لوحات الانسان المجد بعمله ، المحب لوطنه ، المخلص لاصحابه ، الوفي لاسرته ، الطيب السريرة ، المتفاني في سبيل عمله الجامعي ، لم يتخلف عن خدمة انسانية ، ولم يتوان عن تقديم اطيب العطاء ، ومنح انضج الثمرات .

وكان حبه للعراق والعروبة ، قلبا ولسانا وتاريخا وتراثا ، من ابرز صفاته الشخصية، ومن خصائص ارومته العربية ، وقد كلفه ذلك غاليا ، منذ ايام دراسته، وسني غربته ، ومحيط جامعته .

هذا وستظل صورته واحاديثه وذكرياته في نفسي وقلبي وأمام ناظري كصورة الاصحاب والاحباب الذين فقدناهم وودعناهم الى دار الخلود !

ولعله وهو في قبره اليوم أسعد حظا منا . فيما نجهله من غدنا ، اذ وجد من يكتب عنه بعض الذكريات ، ويخصص للكلام عنه بعض الساعات ، وها اني الان ابعث اليه بنفحة من نفحات المودة والاخاء ، وبزهرة من زهور الصداقة والوفاء ، متمثلا بقول الشاعر الكبير عمر ابو ريشة وهو يرثي احد أصحابه بقوله :

يا (صديقي) اسامع في حنايا القبر ... نجوى الاشباح والارواح
لهف نفسي كم بحة في لهاتي ... ما لها في نشيجها من بواح
نم على الترب لا مزارك شاف ... ما اعاني ولا خيالك ماح
كيف آتيك بالنجوم وسادا ... والليالي مقصها في جناحي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

محسن جمال الدين

الرحلة ٢٤و

بقلم الدكتور احمد عردات

قصة

لم يعد على موعد اقلاع الطائرة سوى اربعين دقيقة ليتم بعدها فراق سليم عن ندى الى الابد . لم تكن ندى بالطبع تعرف ذلك ، او ربما كانت تتظاهر بعدم المعرفة . او ربما كانت تتظاهر بعدم الاكتراث لظنها ان الاعتراف بالخطأ يحط من كرامتها امام زوجها او « يطمع » زوجها بها على حد تعبيرها . من ناحية ثانية كانت الاحداث تبرهن بأن ندى تفتقر الى التجربة والى اللياقة في الحديثمع معارفها وحتى مع زوجها . بكلام اخر كانت ندى تعتقد بأن الطعنة التي وجهتها الى ظهر زوجها ككل شجاراتهما ـ مجرد زوبعة في فنجان .

كان الاثنان يقفان في طابور ايداع العفش . كان سليم يحمل جواز سفر ندى وبطاقة سفرها . لم تكن ندى قد اطلعت على جواز السفر قبل الان والا لما كانت تسأل بين اللحظة واللحظة زوجها اذا ما كان يحبها .

كان زميله عمر قد نهاه عن الزواج منها. لقد اخبره عنمساوئها العديدة : خمولها ، سلاطة لسانها، علاقتها المشبوهة مع احد زملائها ، حلقات النميمة التي كانت جزءا منها ، الخ .. لم يكن لعمر ايهدف من وراء ما كان يقوله لسليم لو ان الاخير لم يسأله المشورة .

« انا اعرف لماذا انت مصمم على الزواج منها . انا اعرفك جيدا ـ خمس سنوات اليس كذلك ؟ ان مشكلتك هي مبالغتك في فضيلة الوفاء . لو انك تزوجتها قبلسنتين لما تجرات ان افوه بكلمة ضدها . غير ان الامور قد تغيرت يا سليم . لم تعد ندى تلك الفتاة التي كنت تحدثني عنها . لقد تغيرت جدا .. جدا . لقد وعدتها بالزواج . حسنا . ولكنك وعدت ندى التي عرفت والتي لو ظلت هي اياها لطالبتك انا بالوفاء بوعدك لها . باختصار لم تحافظ عليك كما حافظت عليها ، يا سليم » .

« يا استاذ ، هل يمكن ان تلحق بالشخص الذي امامك ؟ نريد ان نخلص » .

ونظرت ندى الى سليم لتسأله عن سبب شروده .

انحنى سليم ليلتقط حقيبة يد ندى عن الارض ودفع حقيبة السمسونايت البيضاء برجله فتحركت بسهولة بسبب العجلات المثبتة بها .

لم يكن الامر سهلا بالنسبة له . لقد كان يشعر وكأن هناك ترسا من السكاكين يدور في صدره . اراد ان ينظر اليها ويضمها الى صدره ليسألها لماذا ارتكبت ذلك الخطأ .

وتدارك نفسه عندما شعر وكأن الدموع تتكون في عينيه .

لم يكن يتصور قط ان مثل ذلك يمكن ان يحدث له . تصوره يحدث في الروايات في السينما والمسرح .. ربما لاحد معارفه او لاحد اصدقائه اما ان يحدث ذلك معه شخصيا . مستحيل .

كان سليم قوي الشخصية عصاميا شديد الاعتزاز بنفسه وكرامته . اشد ما كان يكره هو الكذب والخيانة والكسل . لطالما اخبرها بذلك وكانت دائما تعقب على كل واحدة من هذه الصفات بقصة حدثت معها لتثبت له انها توافقه الراي تماما . حتى انها كانت تركز في ملابسها على الالوان التي كان يحبها .

خسارة . يظهر ان ندى كانت بارعة في صنعة الماكياج . لقد استطاعت ان تغطي كل نقيصةعندها بشيء ملون ، قطعة قماش ، تظاهر » . حتى الشيء الذي كان يقدرهامناجله قد انهار ـ الكبرياء .

« ما اريد ان اعرفه هو ـ كيف نزلت الى ذلك المستوى » .

وبكل وقاحة قالت ندى بانه يحق لها ما يحق لسليم . لماذا يحقلسليم ان يتعرف على نساء اخريات ولا يحق لها ان تتعرف على شبان !

« ولكنني حافظت على كرامتك طوال مدة زواجنا . انا لم اخنك قط » .

ووقع سليم ضحية كرم اخلاقه مرة ثانية . تذكر ان ندى وحيدة في بلاد الاغتراب وانه يجب ان يواسيها حتى يحين الوقت لارسالها الى بيت اهلها .

« هل تريدني زوجة لك بعد كل ما حدث ؟ »

وفكر سليم بان كلمة « لا » ستزيد الامور تعقيدا . ثم تذكر انها قد هددته بالانتحار مرة . وتخيل نفسه عائدا من عمله ليجدها ممددة في غرفة الحمام في بركة من الدم بعد ان قطعت الوريد في رسغ يدها . كان يمكن ان يبلغ السلطة . تذهب الجثة الى المشرحة ويذهب هو للتحقيق . لا ! انا بغنى عن ذلك » .

« هل تقبلين نعم جوابا » .

الحمد لله الذي انقضى الوقت بسرعة . لم اكن اصدق ان ثلاثة اشهر قد مرت على الحادثة . ثم انني لو استطعت ان احصل لها على اشارة خروج عندها لما رضيت بالسفر اذ لا بد ان تشك في نيتي عندها. انا متاكد من انه ليس لديها ادنى شك الان بانني اريدها وانها عائدة الي بعد مدة وجيزة .

وشعر سليم وكأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كتفيه . ولاحظ على نفسه انه يبتسم . فشعر بالخجل ونظر حوله حتى يتاكد بانه ليس هناك من يراقبه .

لم تكن ندى بجانبه . نظر يمنة ويسرة والى الخلف فاذا بها تتحدث مع شابين لم يرهما سليم في حياته .

« تبا لها من امراة . انها تتصرف وكانها آتية من كوكب اخر . الا تعرف حدود اللياقة ؟ الا تعرف بانها اذا كانت تقف مع انسان ـ دعك من ان هذا الانسان هو زوجها ـ يجب ان تاخذ اذنا من هذا الانسان لتكلم انسانا اخر . الحمد لله . كلها نصف ساعة وينتهي كل شيء ».

بدأ الدم يتدافع الى وجه سليم وبدأ الغيظ ياكل قلبه ، تمنى لو انه يستطيع الذهاب اليها ليصفعها على وجهها وليصرخ في وجهها «خائنة».

« هذا صديقي منذ ايام الدراسة، يا سليم . اريدك ان تقابل زياد » . اليست هذه هي الطريقة التي قدمت بها جمال ؟ هل كانت صداقتها مع زياد تشبه صداقتها مع جمال ؟

« اهلا وسهلا ، سليم » .

« كانت ندى من اعز اصدقائي في الجامعة » .

وابتسم سليم ابتسامة مبطنة بالسخرية :

« هذا رائع . لماذا يا ندى لم تعرفيني على الاخ .. »

« لم اكن اعرف عنوان زياد هنا»

وانتبه سليم الى استعمال كلمة «زياد» دون تكلفة . وتذكر الطريقة التي كانت تخاطب بها جمال وصديقه سهيل . حتى ولو لم يكن سليم يعرف مسبقا بعلاقة ندى بالاول لظن بأن علاقتهما لم تكن مجرد صداقة .

كان سليم وندى يجلسان مرة في غرفة انتظار المدرسة التي كانت تدرس ندى بها . رن جرس التلفون فهرعت اليه وكانها عامل الهاتف المكلف بالامر :

« جمال ! انا ندى »

....

« ولا يهمك »

....

« سآتي انا وسليم أليك حالا »

....

« لقد كان عمر على حق . لقد كنت مغفلا . كان يجب ان اتخلى عنها مع شرح الاسباب » .

اعطى سليم حقيبة اليد لندى التي وقفت جانبا . سار سليم بالحقيبة الكبيرة الى الميزان ، وقدم جواز السفر الى الموظف الذي وضع عليه تاريخ الخروج .

« خروج بلا عودة ؟ »

واخفض سليم صوته وهو ينظر الى الوراء .

« لست انا المسافر »

وضع الموظف بطاقة امر الاركاب في بطاقة السفر التي وضعها في جواز السفر وناولها لسليم .

« ماذا تريدني ان احضر لك عند عودتي ؟ »

وكادت عينا سليم تذرفان الدمع ، لقد شعر باحساس غريب وكأنه يريد ان يقول لها « اني أسامحك » ولم يستطع النظر في عينيها . فظل ينظر الى الارض .

« سلامتك . لا شيء » .

ناولها جواز السفر والبطاقتين واخذ يبكي ولم يكن منها الا ان اجهشت بالبكاء هي ايضا .

« ساشتاق لك جدا يا سليم في غيابي . ستكتب لي دائما أليس كذلك ؟ »

واسعف مذيع المطار سليما في الاجابة .

« الرجاء من ركاب الرحلة ٢٤٠ والمتجهة الى بيروت التوجه الى غرفة الانتظار » .

ظل الدمع ينهمر على خدي سليم فيما آخذت ندى تسير ناحية موظف الجوازات وهي تنظر اليه . اشارت له بعد أن انتهت من معاملة الجوازات لا ينتظرها فاشار لها ان تضع الجواز في حقيبتها . واختفت ندى خلف حواجز شرفة الانتظار الداخلية ولم يقدر سليم ان يعود الى شقته الا بعد ان سمع صوت مذيع المطار الداخلي يقول « والان نعلن عن اقلاع الرحلة ٢٤٠ الى بيروت .

احمد عردات

جامعة الرياض



عيسى فتوح

المستشرق عبد الكريم جرمانوس في حياته وآثاره

بقلم عيسى فتوح

* * *

توفي في تشرين الثاني ١٩٧٩ في بودابست ـ بالمجر المستشرق المجري الكبير الدكتور عبد الكريم جرمانوس، صديق العرب الحميم، الذي عرفته من خلال ما كان يكتبه لمجلة الاديب اللبنانية. لقد خسر به الاستشراق الصحيح عالما فذا، وباحثا فريدا، اعطى الشرق عامة والعرب خاصة، كل ما كان يطفح به قلبه من حب واعجاب وتقدير، فقد وقف حياته التي امتدت خمسة وتسعين عاما على الدراسات العربية والاستشراقية.

ولد المرحوم عبد الكريم جرمانوس عام ١٨٨٤ في بودابست، اجمل مدن اوروبا، وملتقى اغنيائها قبل الحرب العالمية الثانية، وتعلق وهو طالب في الجامعة، بلغات الشرق الادنى وتاريخه، فتعلم اللغتين العربية والتركية على المستشرقين المجريين فامبيري وغولد زيهر اللذين ورث عنهما ولعهما بالشرق الاسلامي، ثم تابع دراسته بعد عام ١٩٠٥ في جامعتي فيينا واستنبول، والف كتابا بالالمانية عن الادب العثماني سنة ١٩٠٦، وآخر عن تاريخ اصناف الاتراك في القرن السابع عشر، فنال عليه جائزة مكنته من قضاء فترة طويلة في لندن، حيث عكف على دراسة النصوص التركية القديمة في المتحف البريطاني.

عاد سنة ١٩١٢ الى بودابست، فعين استاذا للدراسات العربية والتركية والفارسية وتاريخ الاسلام وثقافته في اكاديمية بودابست، حيث علم تاريخ الفكر الاسلامي، واللغتين العربية والتركية، ثم استاذا ورئيسا للقسم العربي في جامعة بودابست ١٩٤٨، وظل يقوم بتدريس اللغة العربية وتاريخ الحضارة الاسلامية والادب العربي قديمه وحديثه زمنا طويلا، محاولا ايجاد حلقات اتصال بين نهضات الامم الاسلامية الاجتماعية والنفسية، حتى احيل على التقاعد سنة ١٩٦٥.

دعاه شاعر الهند العظيم رابندرانات طاغور الى الهند عام ١٩٢٩، فعلم في جامعات دلهي ولاهور وحيدرآباد حتى سنة ١٠٣٢، وهناك اشهر اسلامه في مسجد دلهي الأكبر، ونشر كتابيه «الادب التركي» و«الحركات الحديثة في الاسلام».

يقول في محاضرته التي القاها في دمشق عام ١٩٥٥ تحت عنوان «في الفكر العربي»: «لقد كنت احد التلاميذ المتواضعين للاستاذين الكبيرين فامبيري وغولد زيهر، فورثت عنهما تعلقهما الشديد بالشرق الاسلامي، ولم يقصر اهتمامي على كشف النقاب عن التراث المجري العريق، بل اردت ان اتعمق في التنقيب حتى اصل الى روح الشعوب الاسلامية وقلبها النابض، ولما كانت روح الشعوب الاسلامية وقلبها مرتبطين ارتباطا وثيقا بالدين الاسلامي، باعتباره آخر الاديان المنزلة الى بني الانسان، فقد اعتنقت الاسلام علنا في مسجد دلهي الاكبر في الهند» (١).

قدم الى القاهرة عام ١٩٣٩، وتعمق في دراسة الاسلام على شيوخ الجامع الازهر، ثم قصد مكة المكرمة حاجا، وزار قبر الرسول في المدينة المنورة، فالف في صحبته كتاب «الله اكبر»، ونشر في عدة لغات عام ١٩٤٠.

يقول في المحاضرة نفسها: «.. كما اديت فريضة الحج في مكة المكرمة، وزرت قبر الرسول، وكنت موضع حفاوة وتكريم من قبل اخواني المسلمين، فبادلتهم حبا بحب..».

قام في القاهرة والسعودية بتحريات علمية دقيقة بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ نشر نتائجها في مجلدين كبيرين هما «شوامخ الادب العربي» ١٩٥٢، و«دراسات في التركيبات اللغوية العربية» ١٩٥٤، ثم عاد في ربيع ١٩٥٥ ليقضي بضعة اشهر في القاهرة والاسكندرية ودمشق بدعوة رسمية، ليحاضر بالعربية عن الفكر

العربي المعاصر ، والادب المجري ، وقد نشر الاستاذ صلاح دهني هذه المحاضرات في دمشق عام ١٩٥٦ تحت عنوان « بين فكرين » .

كذلك عاد الى الشرق في شتاء ١٩٥٨ لاستكمال مصادر كتابه الجديد عن الادباء المعاصرين ، وظل حتى ايامه الاخيرة على صلة باصدقائه العرب في كل مكان ، كالدكتور عيسى الناعوري ، وعدنان مردم بك ، والبير اديب ، وفاضل السباعي ، وهلال ناجي ، وعبد الخالق فريد وسواهم .. يراسلهم بانتظام ، اما بالبريد ، او عن طريق مجلة « الاديب » .

انتخب عضوا في المجمع الايطالي عام ١٩٥٢ ، ومراسلا لمجمع اللغة العربية في القاهرة ١٩٦٥ ، والمجمع العلمي العراقي ١٩٦٢ ، وعضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بدمشق .

آثاره

الادب العثماني ـ بودابست ـ ١٩٠٦

قواعد اللغة التركية ـ ١٩٢٥

الثورة التركية ـ بودابست ـ ١٩٢٨

القومية العربية ـ المجلة المجرية ـ ١٩٢٨ بالفرنسية

الادب التركي الحديث ـ كلكتا ـ ١٩٣١

التيارات الحديثة في الاسلام ـ كلكتا ـ ١٩٣٢ بالانكليزية .

اثر الاتراك في التاريخ الاسلامي ـ الثقافة الاسلامية ـ ١٩٣٢

غرام في الصحراء ـ مهرجان القاهرة ـ ١٩٣٧ ـ بالعربية

الله اكبر ـ ١٩٣٨ ـ بعدة لغات

الشاعر الكسندر بيتوفي ـ المقتطف ـ ١٩٤٠

اكتشاف الجزيرة العربية وسورية والعراق ـ بودابست ١٩٤٠

نهضة الثقافة العربية ـ الجمعية الشرقية المجرية ١٩٤٤

انور الجندي ـ دراسة في ادبه الحديث ـ القاهرة ١٩٥٠

محمود تيمور والادب العربي الحديث ـ المجلة الاسلامية بلندن ١٩٥١

شوامخ الادب العربي ـ الثقافة الاسلامية ـ ١٩٥٢

دراسات في التركيبات اللغوية العربية ـ الفصول الاسلامية ـ ١٩٥٤

بين فكرين ـ دمشق ـ ١٩٥٦ بالعربية

في نور الهلال الشاحل ـ بودابست ـ ١٩٥٧ و١٩٥٨

منتخب الشعراء العرب ـ ١٩٦١

تاريخ الادب العربي ـ ١٩٦٣

رسائله

كان الدكتور جرمانوس يقرأ مجلة الاديب باستمرار ، فلا يكاد يطلع على بحث من الابحاث الادبية الهامة ، او كتاب من الكتب العربية المطبوعة ، حتى يكتب لصاحبه شاكرا حامدا ، ويعقد الصلات الادبية المتينة بينه وبينه ، فقد كتب للمرحوم نقولا يوسف في الاسكندرية قائلا : « كنت اول من كشف عن آثار صديقي القديم ابراهيم المصري ، وعبقريته ، قبل ثلاثين عاما او اكثر ، حين اقمت في القاهرة واتصلت به برفقة امين حسونة ، وقد كتبت فصولا طويلة عن حياته ، ولخصت اكثر مؤلفاته وعلقت عليها ، ونشرت هذا كله في كتابي « الله اكبر » و « تاريخ الادب العربي » .

وكان يعيش في المجر منعزلا عن العالم الخارجي ـ كما يقول في رسالة بعث بها للاستاذ هلال ناجي ـ يتيما بين ابناء وطنه ، تسليته الوحيدة في هذا القفر هدايا اصدقائه الناطقين بالضاد ، يتسلمها من حين لاخر ، فتساعده على بذل جهود جديدة في مضمار الثقافة العربية .

كتب لمحمود الشرقاوي اثر تسلمه كتابه عن سلامة موسى قائلا : « لقد تشرفت بصداقته الوفية طوال اقامتي في القاهرة ، وتلذذت بحواره العلمي ، واستفدت من المناقشات الجدية التي جرت بيننا حول المذاهب الفلسفية والسياسية ، فأعجبتني سلامة آرائه ، وطهارة روحه ، مع ارتضائه كل تضحية شخصية في سبيل مصلحة المجتمع ، ولو كان في ذلك بذل لحريته وحياته ، وما زلت اعده من اعظم شخصيات الجيل الناهض الذي خلف وراءه تراثا لا يفنى في مضمار العلم والتفكير وتطور الادب العربي .. » .

وكتب للشاعر الدكتور علي الناصر في حلب قائلا : « مع انني تعلمت اللغة العربية في بلادي جالسا على كرسي ، بالرجوع الى القواميس ، منذ اكثر من ستين عاما ، فانني اقرأ الالاف من الصفحات العربية شعرا ونثرا ، واجد ان الصعوبات تزيد بمرور الزمان ، لكن الظمأ الى كشف الينبوع العتيق لا يزال يعذبني ، وسوف يكربني الى نهاية حياتي » .

« لقد وقفت على لغات شتى ، وتبحرت في آداب عديدة ، لكنني لم احظ بمثل السرور الذي يسعدني عند قراءة الادب العربي ، على رغم المشكلات اللغوية .. » .

كانت صلة الدكتور جرمانوس وثيقة جدا بالكتاب والشعراء العرب في كل مكان في سورية ولبنان والعراق ومصر والمهجر ، فانعقدت بينه وبينهم اواصر الود والصداقة الحميمة ، وكانوا يواصلونه بما ينشرونه من كتب ، فيأبى عليه اخلاصه الا ان يكتب عنها او يعلق عليها اما بالرسائل القصيرة او بالفصول المسهبة ، وكانت مجلة الاديب هي النافذة الواسعة التي يطل منها على الادباء العرب ، وقلما يخلو مجلد من مجلداتها من عدة رسائل ادبية او اخوانية تنم كلها عن نبل وفائه ، وسعة ثقافته ، وعمق صداقته ، وتعلقه الشديد بكل ما يمت الى العرب

من وحي البحر

جاء الصباح وقد تبدى بالحياة وبالامل
وتهافت الموج المثير على الحسان بلا ملل
نشرت حسان البر اجنحة الجمال العاريه
تهفو الى حلو الاماني في المياه الجاريه
لا تشتكي ألما ولا تخشى صراع الكائنات
الله اودع في دناها كل احلام الحياة
يا بحر هب لي من صفائك انني زهر الاقاحي
خرجت به الاقدار من قلب الجنان الى البطاح
ارنو الى الامواج تهزج في الصباح وفي المساء
والى المفاتن تبعث السلوى وتودي بالعناء
وكأننا اخوان قد حرما الابوة في الصغر
نبكي بألحان الحياة وقد تلاشت في الحجر
يا بحر ما لك قد ظللت وقد تغيرت الجواء
اتراك تفري الغيب يضحك في جنون الكبرياء
كم من اناس قد هديت من الشرور المستطيره
وعلوت بالقلب الكريم الى الحياة المستنيره
آووا الى كنفي وقد طرحوا الشقاوة والعذاب
وجدوا المحبة في ظلالي والاماني العذاب
يا بحر ما هذا الجلال الخاشع المتعبد
هل انت كهف قائم ؟ ام انت خلد موصد
قد بان فلك من عبابك والرياح صواخب
والحور تقذفها الى صدر الضفاف رغائب
والناس في دنيا المطامع ينهبون ويغتدون
باعوا ضمائرهم باسعار المهانة والمجون
لا الوعظ يردع ذا الجهالة.. او يحرك اويشير
او يرعوي اهل المباذل ان تعقبهم غيور
اضحوا جياعا كالذئاب او الوحوش الضاريه
وتقاسموا جثث الضحايا والمخالب داميه

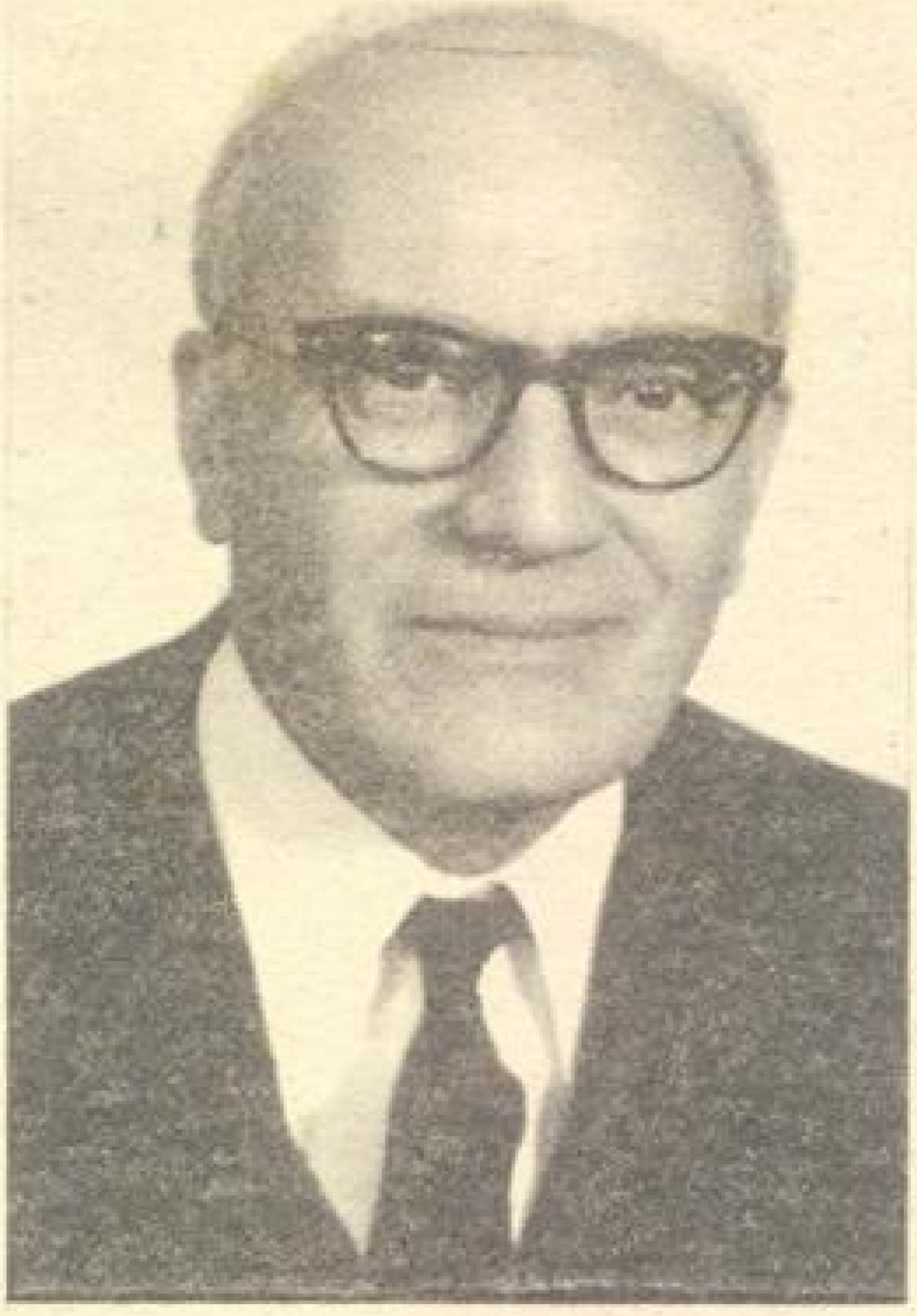
عين شمس ـ مصر — جميلة العلايلي

والاسلام بصلة .. فقد كان يعتبر المجر منفى له لا وطنا ، انقطع فيه الى دراسة الادب العربي واللغة العربية ، لا مؤنس له في وحشته غير زوجته الحاجة عائشة ، التي القى عليها بعد موته تركته الادبية الضخمة من رسائل وابحاث ومخطوطات جاهزة للطبع ستحار كيف تتصرف بها وحدها .

كان الدكتور جرمانوس يؤمن بان التطور في كل لغة وكل ادب وكل حياة اجتماعية ، انما ينبع من اوسع فئات الناس الذين يتكلمون تلك اللغة ، ويولد بينهم ذلك الادب، ويعيشون تلك الحياة ، فلا المجامع اللغوية ، ولا الهيئات الادبية ، ولا الزعماء السياسيون ، هم الذين يفرضون انواعا من التطور في هذا الاتجاه او ذاك ، بل ان الشعب هو مصدر كل تطور خلاق ، يكتب له البقاء والنمو .

١ ـ بين فكرين ص ١٠ .

دمشق — عيسى فتوح



سعيد ابو الحسن

نيران على القمم
سيرة ذاتية

بقلم سعيد أبو الحسن

* * *

(٦)
الثـــورة

في يوم من شهر تموز عام ١٩٢٥ ، وقد صار نيسان ، وعيد استقلاله ، وحفلاته المضحكة وراءنا ، والناس منهمكون بأعمال الحصاد ، وكروم العنب تنتظر آب لتبدأ عطاءها السخي ، اجمل عنب في الدنيا ، سرى نبأ هز القرية من اولها الى آخرها : سلطان ضيف القرية اليوم. انه نازل في بيت سلمان برق (رزق) والاهالي يتوافدون للسلام عليه . واهمية النبأ متأتية من ان سلطان الاطرش في عرمان امر له مغزى فريد ، لا يدركه غير المطامين على تاريخ الرجل ، وتاريخ القرية . اما الرجل فهو حامل لواء الثورة على الفرنسيين المحتلين ، وقد قام بثورته الصغرى المحصورة منذ سنتين ، وقصفت الطائرات داره فهدمتها وادرك ان حركته ، التي قام بها تحت ضغط الاثارة ، اثارة اسر ضيفه ادهم خنجر ـ وهو احد الثائرين اللاجئين ـ لم تكن بعد في آوانها ، والناس لم يكونوا بعد مستعدين للثورة الشعبية الشاملة لجميع انحاء الجبل . فقبل الوساطة والمهادنة ، ولكنه كان يضمر شيئا . والذين يعرفونه كانوا يعرفون انه يضمر الثورة . فهو من الرجال القلائل الذين لا ينامون على ضيم ، ولا ينسون دارا تهدمت ، وحرمة جوار انتهكت . فضلا عن احتلال اجنبي بغيض يجب ان يزال .

هذا هو الرجل ، ضيف عرمان . اما عرمان ـ القرية ـ فهي مفتاح حرب ، هي البؤرة الثورية الدائمة التوهج : اقضت مضاجع الاتراك العثمانيين ، واتراك تركية الفتاة ، وفي تاريخها ابادة جيوش ، وكفاح وبطولات ولا اروع . وكانت بعيدة عن ثورة سلطان الصغرى ، المعروفة بالثورة الاولى ، قبل ثلاث سنوات ، لان سلطان ـ كما قلنا ـ قام بتلك الثورة تحت ضغط الاثارة ، ولم يشاركه فيها غير اخوته وبعض ابناء عمه ، وبعض رفاقه المقربين جدا (١) .

وحلوله في عرمان ، اليوم ، ادراك منه لحقيقة تاريخية ، ان الثورة ، ان لم تبدأ من بؤرتها ، من موقدها ، من معينها ، فلن تكون ثورة ، ولن تعم سائر القرى . وجو القرية متوتر ، والرجال في حركة ، ضجيج ، صهيل خيول ، ترقب لامر ادركته ضمائر الرجال بالحدس ، قبل ان تتحدث به الالسنة .

كان والدي المطل على الخمسين قد اصبح ابيض الشعر تماما ، وكان جالسا في ارض الدار ، في ظل ما بعد الظهر ، حينما دخل بيتنا زائر كان صديقا لنا ، وهو اكبر من والدي ، ولكنه كان على صلة وثيقة به، يتشاوران في كل شيء ، ويبحثان كل امر . دخل وسلم وجلس الى جانب والدي ، وانا ، الصبي في منتصف الثالثة عشرة من العمر ، اصغي لما يقال ، وانظر الى القرية من بيتنا البعيد عنها ، انظر وارقب شيئا بالحدس ، كما يفعل غيري .

نظر كل من الرجلين الى صاحبه وقال الزائر :

ـ انها الثورة ، يا ابا سعيد ، هل تدرك ما نحن فيه وما نحن مقبلون عليه .

ـ انني احس ذلك ، يا ابا قاسم ، فلقد مررنا بمثل هذه الحالة من التوتر والانفعال الشديد مرات كثيرة من قبل ، اتذكر الخراب : وممدوح ، وسامي باشا .

ـ كيف لا اذكر . وككل مرة ، سنحارب نحن الشعب ، ونخوض معارك ضارية ، وسيقتل منا الكثير الكثير ، وسنتشرد ونجوع ، وستدمر بلادنا ، وسيصبح بيننا العديد العديد من الايتام والارامل ، ولن يلتفت الينا احد .. ومن يعش ير .

ـ اجل الشعب يقوم بواجبه ، وبعضهم يستغلون تضحياته . ولكن لا مجال للنقاش الان . فالواجب اولا (٢) . وانصرف صديقنا ، وبقي والدي صامتايفكر . وانا احدق في وجهه الصبيح المتجهم ، وادير في راسي الصغير الحديث الذي سمعته ، والذي لم انسه طوال حياتي ، والذي سأفيد منه ايما افادة فيحياتي السياسية المقبلة .

وما هي الا دقائق حتى ضجت سماء القريةبطائرتين حربيتين فرنسيتين قدمتا ـ ولا شك ـ لرصد تحرك سلطان ورفاقه ، وفي بداهة وعفوية منقطعتي النظير ، قفز كل رجل مسلح في القرية الى سطح منزله وبدأ اطلاق النار على الطائرتين . وكان والدي من اسرع القافزين الى السطح ، وانا معه . واخذ يطلق الرصاص وانا اجمع الفشك الفارغ عندما يلفظه مغلاق البارودة وراءه او الى جانبيه . وفي لحظة من اللحظات ، قال لي بعد احدى الطلقات : « لقد اصيبت الطائرة ، لقد خرج دخان من بيت النار فيها . رأيته بأم عيني » (٣) ـ من هو الثائر المجهول الذي اصاب الطائرة : من يدري : قد يكون والدي الذي رأى الاصابة لحظة حدوثها وعلى اثر طلقة اطلقها . واعلن انه رآها تصاب . وقد يكون غيره من ابناء القرية وكانوا عدة مئات فوق سطوحهم ومئات الطلقات تصعد معا نحو الطائرتين وكل رجالنا رماة مهرة ، المهم ان الطائرة اصيبت . وان هذا العمل يعني ان الثورة قد بدأت فعلا ، بلا رجوع . وبدأت بحادث يعزز ثقة الثائر بسلاحهومقدرته على مقاومة السلاح الجوي ، كما كان قادرا في السابق على مقاومة السلاح البري . وسقطت الطائرة في قرية متان المجاورة واسر طياراها الاثنان . كان ذلك في ١٩ تموز ١٩٢٥ .

وفي اليوم التالي هاجم الثائرون مركز البعثة الفرنسية في صلخد فاحرقوه . وفي اليوم الثالث انقضوا على اول كتيبة فرنسية ، كانت في طريقها اليهم ، وكانت مخيمة في قرية الكفر ، عند منتصف الطريق بين السويداء وعرمان ، فأبادوها . وفقد عدد من الثوار البارزين وجرح عدد آخر . وبدأت اواجه قضايا جديدة : كان في طليعة القتلى عدد من ابرز الرجال المقاتلين في بلدتنا عرمان ، اذكر منهم سلمان برق (رزق) ، حمد العطواني ، مهنا الصغير ، الاخوين سعيد وسلمان الصغير، ومن المشهورين خارج قريتنا : مصطفى الاطرش (شقيق سلطان) ، وشهاب غزالة (حامل بيرق ملح الذي خلد ذكره في تلك المعركة) وعددا من اقاربه. ليست مهمتي تأريخ الحوادث، فانا اكتب ذكريات ، وقد ذكرت الاسماء التي سمعتها يومذاك وانا صغير . اما القتلى الذين لا اعرفهم او لم اسمع بهم في ذلك الحين فمكان ذكرهم في الاحصاءات التاريخية الاخرى ، كالاحصاء الذي قام به مشكورا الاستاذ سلامة عبيد في كتابه « الثورة السورية الكبرى من خلال وثائق لم تنشر ـ ١٩٧١ » ـ او الاحصاء الاوسع والاشمل الذي اورده ـ مشكورا كذلك ـ المؤرخ الثائر الاستاذ جميل العلواني في كتابه « نضال شعب وسجل خلود » ١٩٧٣ .

لاحظت ان بعض الوجوم غشى الوجوه عند وصول انباء المعركة . ولكن الفرح والاعتزاز بالنصر كانا اقوى من الوجوم : فلا مأتم ، ولا بكاء ، بل اهازيج وافراح ، واستعداد دائب للمعارك القادمة . النساء يبكين في صمت عندما يكن منفردات ، اما امام الناس فلا بكاء ولا حزن : عليهن ان يشجعن الرجال بدلا من تثبيط عزائمهم وكان لا بد من ملاحظة ان بعض البيوت ستخلو من الرجال مثل بيت قريبينا سلمان وسعيد ولدي محمود الصغير . وهذا من اول معركة . فكيف ستكون الحال بعد ذلك : هذا ما اخذت تردده الالسنة . ومسألة اخرى كنت اسمعها عندما يكون الاقارب وحدهم : كانوا يعتزون بأنهم يدفعون الثمن الابهظ . ولا ننس اننا ما زلنا في الطور العشائري ، فالعائلية كانت ما تزال رباطا قويا : المفاخر للجميع ، والعار على الجميع . والفرد لا شأن له ، فهو ليس اكثر من خلية في الجسم العائلي .

والاعتقاد بان العمر محدود ، وبان الموت ليس سوى نقلة من جيل الى جيل ، الاعتقاد بالتقمص ، بان الروح لا يضيع عليها تنفس واحد ، فهي ما ان تنتهي في هذا الجسد حتى تبدأ في جسد مولود انساني جديد بلا اي فاصل او انقطاع (الا يذكرنا هذا بجدلية تلازم النهاية والبداية الى الابد) هذا الاعتقاد ، بالاضافة الى دوافع الرجولة الاخرى ، كحب الوطن ، والاستقلال والحرية ، كانت جميعا وراء هذه الشجاعة النادرة ، التي يتميز بها مقاتلونا .

لم تكن لدى الناس فرصة للتفكير في القتلى والجرحى فالاحداث تتتالى في سرعة كبيرة . فالانتصار في معركة الكفر ادى الى الاستيلاء على الكثير من السلاح والعتاد :

كل سلاح الكتيبة اصبح بيد المنتصرين وكان عدد الثوار الذين اشتركوا في هذه المعركة محدودا ، فالثورة ما تزال في بدايتها وحوالي بؤرتها الاولى فقط ، ولذلك كان عدد الذين تسلحوا بسلاح الحملة الفرنسية كبيرا نسبيا .

وبعد المعركة لجأ الفرنسيون ، في السويداء الى القلعة . وبدأ الحصار . صار على الثوار ان يحاصروا القلعة ، وان يحتاطوا لما قد تجيء به الطوارىء . ولكن انباء الانتصار الساحق في الكفر جعلت الثورة تعم الجبل كله . فلم يعد الامر مقتصرا على المقرن (المنطقة) الجنوبي. بل شملت الثورة السويداء وسائر انحاء الجبل .

وبعد عشرة ايام، من معركة الكفر ، كانت حملة (ميشو) قد زحفت عبر (ازرع) وعسكرت على ماء

المزرعة الواقعة على بعد اثني عشر كيلومترا من السويداء. وبدات المناوشات معها . وفي اول احتكاك رئيسي اشتركت فيه الطائرات والدبابات والمدفعية ، فضلا عن الفرسان الصباحيين المغاربة ، تراجع الثوار وعادوا الى قراهم ليلا ليتهيأوا للهجيج . والهجيج يعني خروج جميع الناس من القرى والالتجاء الى الصحراء ، في القرى القريبة من الصحراء ، او الى اللجاه ، في القرى القريبة من هذه المنطقة الصخرية وهو تدبير طالما لجأ اليه اهل الجبل في حروبهم السابقة . وخيم الوجوم على القرى لورود هذه الانباء السيئة . وبدأنا نتأهب لترك منازلنا . كان والدي قد عاد مع العائدين ، وكانت القرية فيما يشبه الحشر .

وفي اليوم التالي ، حوالي الظهر ، بدأت ترد انباء اخرى مناقضة تماما لانباء اليوم الاول : لقد بدأت تتسرب انباء مفادها ان شيئا ما قد حدث في المزرعة فبدل الموقف. وكنا ننتظر ، ونترقب في لهفة عندما سمعنا صوت حداء يدخل القرية من الغرب ، واذا قريبنا البطل محمد الصغير يصل وقد اعتمر على رأسه عمرة ضابط فرنسي برتبة مقدم ، وحصانه ينوء بحمل الاسلحة والذخائر . ولاقاه الناس ليستخبروا منه ، فأنبأهم بان حملة الجنرال ميشو قد ابيدت ، وان ما يلبسه هو وما يحمله حصانه اصدق دليل على ذلك . ثم بدأ غيره من المحاربين يصلون الى القرية ، اذكر من اسمائهم اسم شهاب الصبي ومحمد زويهد اللذين جاء كل منهما بعدد من الرشاشات والبنادق وكميات كبيرة من الذخائر ، وجاء واحد غيرهما بمدفع .

واخذت الاخبار تتزايد كمية ووضوحا : لقد هاجم الثوار الحملة من جانبها وورائها فاستولوا على قوافل تموينها وامداداتها ، ثم بدأوا يفتكون بالجيش كله بمعركة التحام لم تسجل وقائع الثورة اروع منها : عدة آلاف من القتلى ، واسلحة وذخائر من جميع لانواع ملأت البلاد ، ودبابات ومدرعات حطمت وقلبت واحرقت . انه النصر المؤزر الكامل ، والهزيمة الساحقة للاعداء . وفر ميشو وبعض الفلول من جيشه ، وصار الجبل حرا ليس فوق ارضه جندي فرنسي واحد غير المحاصرين في القلعة .

ومنذ معركة الكفر بدأ الشعر الشعبي يسجل وقائع الثورة وينشد بالانتصارات ويمجد البطولات . والشاعر الذي كان شعره على جميع الالسنة هو صالح عمار ابو الحسن ، وطبيعي ان نردد ، نحن الصغار ، ابياته السهلة وبخاصة ما يمجد قريتنا . فقد استقبل نبأ معركة الكفر وارسل قصيدته المشهورة (٤) :

البارحة جانا خبر ... انو انفتل دولابها
عرمان سالت عالكفر ... ذبح العراضي دابها

---

١ ـ في الواقع لم تكن عرمان بعيدة تماما عن اسباب ثورة سلطان الصغرى فقد كان قريبنا الشهيد محمد الصغير هو الذي رافق ادهم خنجر حتى اوصله الى دار سلطان ، فكان توقيفه وخرق حرمة الدار سببا لتلك الثورة .

٢ ـ ما اشبه الليلة بالبارحة . كان الشاعر الناطق بلسان الشعب يقول :

اذا قتلنا ولا يعري بنا احد ... قالت قريش الا تلك المقادير
نعطي السوية من طعن له نشب ... ولا سوية اذ تعطى الدنانير

٣ ـ بيت النار ـ مكان المحرك في الطائرة حسب التعبير الشعبي.

٤ ـ العراضي : جمع عرضي ـ تصحيف للفظة التركية (اوردو) : جيش ـ والجمع جيوش .

السويداء ـ سورية

سعيد ابو الحسن

سعر بيع مجلة الاديب :

العراق	٤٠٠ فلس
الكويت	٤٠٠ فلس
ابو ظبي	٦ دراهم
دبي	٦ دراهم
قطر	٦ ريالات
البحرين	٦٠٠ فلس
الاردن	٤٠٠ فلس
السعودية	٦ ريالات
اليمن	٦ ريالات
عدن	٦٠٠ فلس
مسقط	٦٠٠ بيسه
مصر	٤٠٠ مليم
ليبيا	٦٠٠ درهم
تونس	٦٠٠ مليم
المغرب	٦ دراهم

الأدب داعية محبة

بقلم عادل الاعور

* * *

الادب محبة .

وهو ، في منطلقاته الاساسية ، يتوسل الوصول بالقارىء - الانسان الى جو حميم ملؤه التواصل الانساني المتعاطف مع الاخرين .

والادب ، في هذا المعنى ذاته ، يتخذ من الحرف المكتوب المتداول صلة ذات جذور بالتراث المشترك المتفاعل ، لاي شعب من الشعوب .

الادب المفتقد الى الاصالة ، يدور في فراغ . ولا يمكن ان يقدم ما يغري القراء بالقراءة ، ولا يكتب له البقاء والخلود .

انه يأخذ من الواقع وقائع يستفيد منها ، ويمنحها المضمون الملائم ، في شكل يليق بالاسلوب الذي يختاره الكاتب . في عملية مصاهرة وتزاوج بين الاثنين بحيث يخرجان الى العلن في عملية الكتابة المتلقاة عن صاحبها .

الادب ليس عملية زخرفية مزيفة ، ولا هو تلاعب بالالفاظ او الدوران حولها ، في ما عرف الادب العربي قديما ، من ديباجة بديع او جناس او طباق او تسهيم ..

ذلك ان الادب الباقي ، هو ادب مبني على عاطفة سليمة ، نقية ، ولا يمكن ان يتساهل مع من يقحمون انفسهم في نطاقه الا بشروط .

اول هذه الشروط أن لا يعملوا على اثارة النعرات ، طائفية كانت او عنصرية ، والا فان الذين يتخذون من الكلمة ما يلوثون به النفوس ، ويزيدون المرض ، فهم مدسوسون على الادب والادباء .

الادب ، ليس كالسياسة التي ما دخلت شيئا الا افسدته ، انه لذو حرمة وعفة ورفعة .

واما ما نقراه ، هذه الايام ، من ادب ولو سياسي ، فهو خارج اللعبة ، لانه يستقي من المياه العكرة .

. . . .

وهنا ، في لبنان ، من يدبج المقالة ، بعد المقالة ، للامعان في التفريق بين المواطنين الذين يجمعهم تراث مشترك ، وتاريخ واحد ، ومصير واحد .

فهل هذه الكتابة ، مهما زها اسلوبها ، تدخل في عداد الادب النظيف ؟

انها تعمل على « تقطيع » اللقاء بين المواطنين ، وتقلص فرص التلاقي بينهم .

فالادب الجاد هو الادب الذي يترفع عن اثارة الاحقاد ، وزرع الضغائن ، وترويج دعوة التباعد والجفاء.

فهو يعلو على الجراح والالام ، وان كان لا يغفل فرصة الاستفادة منها ، لينبري ، من ثم ، الى معالجتها وبلسمة قلوب المبتلين بها . فيعمل على تجفيف الدموع في مآقي المتألمين ، مفسحا في المجال امام نقل صورة حقيقية حية ، يمكن استخلاص العبر منها .

ولا يعني هذا ان يرتحل الادب عن الواقع متخليا عن جماليته وحسن فنه . كأن يتحول الى ادب وعظ مباشر ، فيقلع عن التجربة الادبية التي تصور وتنمق وتتشكل في الشكل الذي تريد ، بعيدا عن اجواء النصائح التي ملها الناس ، من زمن بعيد .

الا ان للادب وظيفة ، بطريقة من الطرائق . فهو يحمل مضمونا ويتأسلب بأسلوب ما ، دون ان يترك ، للنقاد ، مجالا للنقد والتجريح .

وليس ، هنا ، مجال الخوض في هذه التفاصيل ، فهي متوافرة في اكثر من مرجع وكتاب .

بيد ان الادب ، في لبنان وفي هذه الاونة بالذات ، يكاد ان يكون انعكاس روح جماعية ، وعقيدة واضحة المرمى ، تقرب وتحث على التآلف والتكاتف والاتحاد .

فاذا كان للسياسة ، الان ، اليد العليا في كل شيء ، فيجب على الادب والادباء ان يخترقوا هذا الجدار السميك ، ويتلاقوا على الدعوة الى وحدة الوطن ، بمنأى عن المآرب، وبعيدا عن الغايات التي لم تعد خافية على احد.

على الادباء ان ينتقلوا ، في ادبهم ، بالناس من هذا الجو الخانق المحموم .

ومما يلاحظ ، في ما افرزته المطابع من كتب ، اثناء الحرب ، يفتقر في اكثره ، الى الاصالة ويفتقر الى التصميم الوطني المطلوب .

ان فرصة ذهبية ، كمثل هذه الحرب المتماحلة (المتطاولة التي لا تكاد تنقضي) - ان صح التعبير -

عـــزاء

رحلت في هداة المساء ... مثل شعاع من الرجاء
فما تبقى سوى خيال ... يطيف في وحشة العراء
ورجع امس صداه حي ... مثل رنين بلا انتهاء

خلفت في الشارع الحزين ... خطى حيارى مع الغروب
والف حلم يذوب شجوا ... في افق اللهفة الكئيب
انت وركب السنين ذكرى ... تضوع بالدفء والطيوب

كان جرس الحفيف بوح ... وغائمات الرؤى دموع
وكل شيء جوى حزين ... يهيج تذكاره الولوع
ترى ، لماذا الدروب حيرى ... والريح والزهر والربوع ؟

كنت اخضرارا على مداه ... نجم الصبا ومضه ائتلاق
شراعه الحلم والليالي ... وشطه الدائم احتراق
في حين ان المنى كثار ... فلا ارتحال ولا فراق

اين مقام بلا انتهاء ... واين سير بلا جراح
واين وعد بلا انطفاء ... اذا بدت غرة الصباح
فكف يا قلب عن انين ... فالكل ماض مع الرياح

دمشق

رضوان الشيخ محمد

كان يجب ان تترافق مع عملية تجديدية ، في الشكل والمضمون .

وبقي ادب الحرب ، مجرد ادب حرب موقتة وطارئة مقصوراً على تصوير ما احدثته من آثار تدمير ، دون ان يستطيع تناوب هذه الظاهرة بأسلوب مغاير ، لما الفناه من اشكال تقليدية ، او ان يعطيها ابعادا جديدة ، ومضمونا جديدا .

ان ادب الحرب ، المرشح للبقاء ، لم يكتب بعد .

وما هذه الكتب المتداولة في السوق ، الا صورة مشوهة ، مبتورة ، لما حدث ويحدث .

فهل ، في هذا الكلام ، شيء من الظلم ؟

ربما .

الا ان الادب ، كما نعلم ، فن جميل . فدعوا صورته تعكس الحق والخير والجمال . ولا تدعوا ، هذه الصورة تمعن فيه ، كالحرب ، تشويها وخرابا وتدميرا ، لمعالم العطاء والمحبة السمحاء . او تعكس للحقد صفحات مقيتة سوداء ، كلون البارود والرصاص .

عادل الاعور

شخصيتان .. عظيمتان

بقلم السيد الجندي

* * *

لكل شخصية اعتبارية تاريخ ، سواء كانت هذه الشخصية الاعتبارية منشأة او جمعية او شركة او صحيفة او مجلة او غير ذلك ، شأنها في ذلك شأن الشخصية الحقيقية . وتتجدد معالم التاريخ بعاملين اساسيين هما :

١ ـ العمر .

٢ ـ الاحداث .

وقلما نجد شخصيتين، احداهما حقيقية ، والاخرى اعتبارية ، مرتبطتين ارتباطا وثيقا . ونذكر هنا من هذه القلة شخصيتين ، أصدق ما يوصف به ارتباط كل منهما بالاخرى ، انهما كالروح والجسد .

هكذا كان البير اديب .. ولا يزال .. مع مجلة الاديب .

واذا ذكرنا شيئا من تاريخهما من حيث العاملين الاساسيين (العمر والاحداث) فانني اكرر السؤال الذي كثيرا ما سألته لنفسي ، كلما تعرضت « الاديب » للاخطار .. وما اكثرها ، من مؤامرات واعتداءات ، سواء كانت هي الهدف ، او كان الهدف بيروت .. والاديب جزء منها:

كم مجلة ادبية على امتداد الوطن العربي عاشت اربعين عاما ..؟

وان وجد .. فكم منها ظلت حفيظة على اصالة نشأتها ، وسمو رسالتها طوال هذا العمر المديد ؟

لقد ارتبطت الشخصيتان العظيمتان (البير اديب ـ والاديب) ارتباطا مصيريا ، منذ ميلاد شخصية الاديب الاعتبارية في عددها الاول ، الصادر في بزوغ عام ١٩٤٢ .

ومنذ ذلك التاريخ ، ظلت الاديب تشع ضوءها ، وتنشر عبيرها ، من بلد الى بلد ، ومن قطر الى قطر . حتى عم شذاها كل الاقطار والبلدان العربية . ثم تجاوز نورها كل هذه الحدود ، فعم جميع الممالك والجمهوريات شرقا وغربا .

ومن العجيب ، ان كل انسان يعرف مجلة الاديب .. سواء كان كاتبا او قارئا .. يحرص على الفوز بها ، ويتابع اعدادها مهما كلفه ذلك من ثمن . فما السر في ذلك ؟؟

حقيقة .. ليس في ذلك سر ولا سحر .. ولكن الجودة ، والاصالة ، والالتزام ، والحياد ، وعدم التبعية .. كل هذه العوامل مجتمعة ، كانت ولا زالت حجر الاساس في بناء الاديب . وقد ساعد على بناء هذا الصرح الشامخ ، ما اكتسبه مؤسسها البير اديب من دراسات وخبرات ، في مجال الصحافة والادب في مصر ولبنان وغيرهما . وقد التزم الطريق الذي رسمه لنفسه وللاديب وسار فيه في تؤدة واتزان رغم وعورته ، فلم ينحرف يمينا او يسارا رغم كل المغريات .

لم يستجب لدعوات الاحزاب السياسية ، رغم ثرائها .. ووفرة مواردها . ولم يحفل بمغريات المذاهب الطائفية ، ولكنه لم يحد عن طريقه قيد انملة . فقد عاهد نفسه وعاهد اصدقاءه وابناءه ان تكون الاصالة منهجه ، والادب الرفيع هدفه ومقصده ، فلا محاباة لاحد مهما كان شأنه ، ولا فضل لعمل على عمل ، الا بميزان الكلمة الشريفة الهادفة .

وان انس لا انس انتاجي الادبي ، سواء في القصة او المقال ، والذي ارسلته الى المجلات الادبية القريبة مني ومن موطني ، حيث وعدني المسؤولون بها بالنشر مرة .. وتجاهلوني مرات .

وعندما ارسلته الى الاديب .. بلا معرفة سابقة ، ولا وساطة من احد ، اذا بالاديب تمنحني الثقة في الادب والادباء بعد ان فقدتها ، وتجدد الثقة في نفسي ـ بعد ان افتقدتها . ومن اوائل السبعينات ظللت حريصا على ابتاء الاديب بأجود انتاجي ، رغم ما عرفته بعد ذلك من مجلات اخرى .

وتعتبر الاديب منهلا لمن اراد الثقافة والادب ، بما تنشره من مختلف مناهل الادب من شعر وقصة ومقال ، كما تعتبر مرجعا لمن اراد البحث بما تنشره من دراسات لعلماء وادباء افاضل ، كما تعتبر الاديب دليلا ادبيا ، بما تنشره من اخبار ادبية للقديم والحديث ، من الكتب والكتاب من مختلف البلدان العربية وغير العربية .

ولم نسمع حتى الان عن اية مجلة او صحيفة يملكها، ويراس تحريرها ، ويحررها ويشرف عليها شخص واحد .. كما هو الحال مع الاديب .. والبير اديب .

وربما كان هذا هو السبب ، او احد الاسباب في احتفاظ الاديب بشكلها ومضمونها طوال اربعين عاما .

واذا كنا نعجب لانسان ، يتولى بنفسه كل هذه الاعمال ، وهو في ذروة شبابه وقوته .. فاننا بلا شك ننظر مبهورين .. بل ونحني قاماتنا احتراما وتقديرا لانسان اقترب من الخامسة والسبعين ، ضعيف البصر . وما زال يقوم وحده بكل هذه الاعمال .

واذكر الان بعض الكلمات المأثورة عن البير اديب في مقال للدكتور فوزي عطوي (عدد مايو ٨١) حيث كان يردد البير اديب دائما على سبيل التظرف : « ان افضل اللجان ، هي اللجنة المكونة من شخص واحد » .

ومن الدعائم القوية ، التي ساعدت على استمرار مسيرة الاديب ، ذلك التعارف ، والتآلف والتآخي بين اسرتها الكبيرة .. ذات الفروع المرتفعة ، والمنتشرة في مختلف البقاع . فهي الدار لكل الادباء ، وهي الملتقى لكل الغرباء ، حيث كنا ولا زلنا نلتقي على صفحاتها دون لقاء ونتبادل من خلالها المراجع والمؤلفات والاراء . كنا جميعا وما زلنا الاسرة المتحابة المتآلفة ، بكل ما تحمل كلمة (اسرة) من معان ، على غير ارحام بيننا .. ولا اموال نتعاطاها . تجمعنا الكلمة الطيبة .. ولا يفرقنا اختلاف الراي ، يعود قوينا مريضنا ، ويسأل حاضرنا عن غائبنا . هكذا نحن اسرة الاديب .

* * *

اما العامل الرئيسي الاخر في بناء الشخصية فهو الاحداث .

والاحداث هي الازمات .. وهي بلغة العلم .. البوتقة التي تنصهر في لهيب نارها معادن الرجال .. فيتحلل بعضها ويتطاير ، ويتحد بعضها مع معادن اخرى ويفقد خاصيته . والقليل منها يخرج من التجربة اشد صلابة ، واقوى عزما وارادة مما كان .

وما اكثر الازمات والتجارب التي مرت بها الاديب وصاحبها . لقد مر بأشد الازمات منذ ميلاد المجلة ، حيث صدر العدد الاول منها في يناير عام ١٩٤٢ ونيران الحرب العالمية الثانية تلتهم كل شيء . كأنها ولدت لتحارب الحرب . او كما قال بعض الادباء الافاضل (كانت تحارب النار بالنور) .

وبدأت المسيرة .. وانطلقت الشعلة .. وسرى النور في كل مكان حلت على ارضه رحاب الاديب .

وتوالت الازمات .. وظل علم الاديب مرفوعا في شموخ ، ظلت المنارة تبعث الضوء على الناس اجمعين ، العدو منهم والصديق . ولكن الازمات تلاحقت ، واشتدت ضراوتها في السنوات الاخيرة ، منذ بَدات الحرب الاهلية في لبنان .

وعاصرنا اول كسوف لشمس الاديب منذ ان عرفناها ، وكان لنا شرف الانضمام لاسرتها . حرمت ابصارنا من رؤية طلعتها قرابة عام كامل . ثم عاد نورها ليبدد ظلام الخوف عليها وعلى صاحبها . ثم تعودنا بعد ذلك هذه الغيبة الطويلة على تخلف ظهور الهلال في مطلع كل شهر . ولكنه كان يهل علينا بغير انتظام ، وبغير ارادة منه .. كل بضعة شهور ، بيد انه كان دائما يحمل الينا خلاصة ما حرمتنا منه قسوة الاحداث .

ثم .. تم بدت قلوبنا تتوجس خيفة بعد شهور قلائل من بداية هذا العام ١٩٨١ ، حيث بدات الانباء غير الرسمية تثير في نفوسنا القلق على مصير الاديب وصاحبها بالتصريح حينا .. وبالتلميح احيانا اخرى .

ثم جاءنا النبأ اليقين .. باصابة اعز مبنى بمنطقة البريمو في لبنان اصابات مباشرة ، وهو يحوي بين جنبيه الشخصيتين العظيمتين . وتحطمت الاديب بما تحويه من آلات وعدد ووثائق .. بينما ظلت الشخصية العظيمة الاخرى بين الانقاض لا يبرحها .

نعم .. ظل البير اديب وحده بين الاطلال .. يأسى لثمرة جهده وكفاحه التي باع من اجلها في غابر الزمان كل ما يملك من رخيص وغال .. حتى مكتبته الثمينة في الجامعة الاميركية .

ظل وحده ينظر في حسرة بما بقي له من بصيص نيران وقذائف الغدر .. تحطم الجدران والاسقف. ولكنها لم تستطع النيل من ايمان الرجل وشموخه . وخسر البير اديب كل شيء .. اللهم الا كرامته ، ومنزلته في نفوسنا جميعا .

وهل علينا هلال الاديب لاول مرة بعد تدميرها ، حيث تم طبعها في مكان آخر ، وفيه دعوات كريمة لاسرة الاديب في كل البلاد للوقوف بجانبها . ولما كانت هذه الدعوات غير صريحة وغير محددة ، فانني اعلنها عالية مدوية بأننا جميعا ملزمون ادبيا بسداد جزء يسير من حقوق الشخصيتين العظيمتين علينا . وليعلم الجميع .. واولهم البير اديب نفسه ان ما اعرضه الان ليس منا ..

ولكنه واجب مقدس . والفضل ليس لنا ، ولكن الفضل لذوي الفضل .

بقي ان يجتمع الاخوة الافاضل من ادباء لبنان ، لتحديد اقساط الدين علينا ، وكيفية سدادها . وليكن ذلك منشورا وواضحا في العدد القادم مع هذا المقال .

ونحن في ثقة بان أسرة الاديب وقراءها لن يدخروا وسعا لتبقى الاديب لسبب غاية في البساطة والايجاز وهو ان البقاء للاكثر نفعا . وصدق الله العظيم حيث يقول :

روعة المغيب

★

القلب يمرح في المروج الخضر كالصب المشوق
والحسن يرتاد الجداول والربى عند الشروق

والشاطىء المسحور لاح كأنـه شلال نـور
يصغي الى همسات قلب رف جياش الحبور

والبلبل الشادي يغرد فوق اغصان الخميله
متنقلا هيمـان في نغماتـه حلم الطفولـه

اني لاذكـر ليلـة قمـراء تعبـق بالعطـور
وقطيـع ضان راح يطوي الدرب في لحن مثير

وارى الطيور تحوم في الافق الوضيء بلا ملال
وكأن رجع غنائهـا الاضـواء تؤذن بالزوال

مشت الطبيعـة بـين ادواح هنالك هائمـه
فاذا الرعـاة تسيح ما بـين المراعي الباسمه

والشمس تجنح للافول وتختفي خلف الاقاح
كالواله المتبول تصبو في الغـدو وفي الرواح

ما زلت ابحث عن نشيد الحب في ظل الغروب
وجوانحي مشبوبة تهفـو الى لقيا الحبيـب

يا فتنـة راحت تصوغ السحر من فن الجمال
ترنـو لمطلـع فجره والضـوء يرقص للهـلال

كربلاء ـ العراق — سلمان هادي آل طعمه

(واما الزبد فيذهب جفاء .. واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) .

وبعد ..

فهذه كلمة موجزة جاش بها القلب وانا اتابع باهتمام وقلق كل انباء الشخصيتين العظيمتين ، بعد ان حال بيني وبين المشاركة في تحريرها عام كامل ، لظروف قاسية تمر بي انا الاخر ، ولكنني نسيت الان مشكلتي الخاصـة للمشاركة في الدفاع عن هدف عام .. احق وابقى وانفع .

والى ان نلتقي في العدد القادم ان شاء الله ، اتقدم بالتحية والاعزاز والدعوات للشخصيتين العظيمتين .

القاهرة ـ مدينة نصر — السيد الجندي

المتنبي شاعر البطولة والمجد

بقلم احمد سعيد هواش

* * *

عشق « المتنبي » البطولة والقوة ، ولعل ذلك العشق والحب لهما كانا من أسباب طلبه للمجد الذي ظل يناضل من اجله طيلة حياته : ولا عجب في ذلك فقد تربى في البادية وتخرج من مدرستها التي تخرج منها قبله ابطال الفتوحات العربية امثال : خالد بن الوليد – وابي عبيدة ابن الجراح – وسعد بن ابي وقاص وغيرهم من ابطال الامة العربية .

وان ولادة ابي الطيب بالكوفة من اب فقير يعمل (سقاء) واصطحابه لابنه هذا الى البادية وبلاد الشام وتنقله بين القبائل العربية وراء الرزق وما صادفه من مخاطر ومشاق وهو لا يزال في ريعان الصبا كل ذلك اكسبه حب المغامرة والصبر على تحمل الجلد واستهلال المصاعب ، فنمت عنده اخلاق الجراة والصراحة، وتعلم من البادية وشعبها الحياة القاسية الخشنة التي يحياها عرب البادية كما اكتسب منهم الفروسية والشجاعة التي تتطلبها الحياة في الصحراء حيث القوة والفروسية هما عنوان تلك الحياة للمحافظة على الربوع والاهل والعشيرة من الغزو والسلب ، يضاف الى تلك العوامل التي ساهمت في نبوغ شخصية المتنبي وتوقدها .

ذلك الفيض من الشاعرية الثرة وامتلاك ناصية القوافي التي سخرها لوصف البطولة والفروسية والمعارك التي كانت تدور على الحدود الشمالية من امارة بني حمدان مع اعداء الامة العربية – الروم – وقد تتوجت جميع العوامل السابقة بميزة هامة الا وهي استعداد المتنبي لتقبل بل لتنمية هذه الخصال حتى غدا هو الاخر بطلا وفارسا لا يشق له غبار ، وشاعرا ثائرا يسكب شعره بقوالب صنعت خصيصا لمعانيها والفاظ منتقاة تخدم المعنى والشكل بحيث يعجز اي شاعر عن ايجاد البديل لها : وهكذا احتضن ابو الطيب ميزتي المجد ، الفروسية والقوافي السيف ، والقلم ، الرمح واليراع فهل يجد المجد اكفأ من شخصه ؟ فهو سيد الحرب والضرب والقلم والسيف والرمح .

فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وثمة عامل هام وهج عند المتنبي الفروسية والبطولة الا وهو اتصاله بالبطل العربي « سيف الدولة الحمداني » امير حلب ، وهو اعظم بطل عربي تألق نجمه في سماء الحرب العربية .

اذ تحول بجنوده الى ما يشبه السد العرم ليصد سيول الروم . وكان من الطبيعي ان تزدحم ساحات قصور هذا البطل بالشعراء الذين جاءوه من كل فج عميق ليتغنوا ببطولته وبطولة جنوده ، ولما كان المتنبي محبا لذلك وبنفسه منها الشيء الكثير فقد جاء ليشارك في تمجيد البطل والبطولة .

بل قل من تسعفه القوافي والبيان ليكون الوصف على قدر الموصوف ؟ فقد وجد ابو الطيب في سيف الدولة ضالته في بطشه بالروم وحقق له احلامه في البطولة العربية المفقودة ، أليس الشاعر فارسا مغوارا ايضا ؟ فلتلتق البطولة الحمدانية بفروسية وشاعرية ابي الطيب المتنبي ولنسمع الشعر العربي الاصيل بوصف معارك البطل الحمداني مع اعداء الامة العربية من شاعر العربية الكبير وفارسها المقدام بقصائد لا اجمل ولا احلى اطلق عليها السلف : (السيفيات) وهي سجل ناصع البياض في البطولة العربية ومجد ادبي خالد لا يزول على مر الايام والعصور ، فالبطولة والمجد عند ابي الطيب بدت وبهما اتوسع قليلا .

البطولة والقوة في شعر المتنبي

يقول ابن الاثير عن فن المتنبي وروعة تصويره للمعارك :

« فاذا وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها ، واشجع من ابطالها ، وقامت اقواله للسامع مع مقام افعالها حتى يظن ان الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، ولا شك انه كان يشهد الحروب مع « سيف الدولة » فيصف لسانه ما رأته عيناه .. » .

ذلك ان المتنبي رزق موهبتي الفروسية الحقة والشاعرية الوقادة فهو بحق فارس الشعراء وشاعر الفرسان وقد اكتسب الفروسية بالفطرة والاستعداد ، ونماها في السفر والترحال في ارجاء البادية ، فكان قويا بالنشأة فولادته في الكوفة وتجوله في البادية وتنقله بين القبائل العربية وراء الرزق يضرب من افق الى افق ويخرج من هول الى هول اكسبه خصال الفروسية والصلابة والمغامرة ، واتصاله بالامير الحمداني ، البطل « سيف الدولة » الاديب الشجاع الكريم ، قد وهج فيه

الشاعرية والفروسية وهما غريزتا البداوة وخصلتا العروبة : لذلك حطت رحاله في رحاب « بني حمدان » حيث البطولة والكرم ، ومن اقدر على تقدير البطولة والشاعرية الحقة من الامير والاديب والبطل سيف الدولة الحمداني فلنسمعه يخاطب الامير الحمداني :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله ... وانعلت افراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة ... ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

ففي رحاب سيف الدولة ، السمح ، الكريم وجد الشاعر « المتنبي » ضالته ، وقد اعجب « سيف الدولة » بالمتنبي فعلق كل منهما بصاحبه ، ويرى الدكتور زكي المحاسني : « ان فروسية المتنبي هي التي كان لها اكبر نصيب في هذا الاعجاب لدى سيف الدولة لذا وقع المتنبي لسيف الدولة وقوع الاليف للاليف ، فلينعم بهذه اللقيا، وليقصر هواه على محبة الامير حيث الكرم والتقدير الى ما شاء اله وهكذا استمرت هذه اللقيا والمودة ما يقارب تسع سنوات يرافقه في معاركه والشاعر يرتدي لباس الحرب من درع وسيف فوق فرسه ويعود معه بعد كل معركة .. وقد ازداد حماسة وبهجة بالنصر ، فينشد ذلك قصائد نارية تصور بطولة القائد الامير وجنوده الشجعان.

فنسمع منها صليل السيوف وهجمات الخيول ونرى عجيج الغبار يملأ سماء المعركة . والدماء النازفة من العدو ، والطعان بالنبال والسنان بين الفريقين المتحاربين فهي ليست قصائد عادية وانما هي اناشيد حربية . سماها السلف « بالسيفيات » نسبة الى البطل المقدام « سيف الدولة الحمداني » وهي سجل حافل بالمجد والبطولة خلدت البطل القائد والشاعر الفارس ، كما انها تعتبر سجلا للملاحم الحربية العربية ، ووثائق هامة في التاريخ السياسي لتلك الفترة الزمنية من القرن الرابع الهجري المضطرب حيث كان الروم كثيرا ما يغيرون على امارة « بني حمدان » مستغلين انقسام الوطن العربي آنذاك .

وتسلط الاعاجم على الحكم في بعض الامارات ، حيث فقدت الدولة العربية ما كان لها من عزة ومنعة ، ولكن الله شاء للامة العربية ان تنبت فرسانا عربا وهي اسرة آل حمدان وكان لها شرف الدفاع عن امتها العربية في بطولات خلدتها « سيفيات » المتنبي ، فهي بالاضافة الى ما تمتع به من سحر بيان وقيمة ادبية رقيقة ، خلدت البطل والبطولة المتمثلين ب « سيف الدولة » والفروسية والشاعرية المتمثلين بالطيب المتنبي فاقترن خلود المتنبي الادبي ، بخلود مجد سيف الدولة الحربي فنسمع صهيل الخيل وحمحماتها ، وضرب سنابكها على بطاح الروم وعليها ابطال بني حمدان الميامين يتمشقون السيوف فنكاد نسمع صليلها ، ونسمع انات الجرحى ، ونرى اندحار الروم ومطاردة العرب الحمدانيين لهم ولعل ابا الطيب يكون الى جانب البطل « سيف الدولة » فيشاهد بعينيه فتصوغه قريحته وشاعريته الوقادة دررا ادبية واشعارا حماسية ملتهبة توقد الحماس والنخوة في قلوب سامعيها، فنسمعها – نحن – بعد اكثر من الف عام فنعجب بالبطولة الحقة والشاعرية الصادقة الموهوبة فلنسمعه يخاطب « سيف الدولة » :

لك الحمد في الدر الذي لك لفظه ... فانك معطيه واني ناظم

لنسمعه يصف معركة « الحدث » احد المنافذ الى بلاد الروم ، حيث احتدمت المعركة بين الروم بجيشهم الكبير العرمرم ، والجيش العربي القليل العدد ، وفيها تمت الغلبة للفئة القليلة على الفئة الكبيرة ، وكان المتنبي مرافقا للقائد العربي الحمداني فوصف هذه المعركة وانشدها بين يدي « سيف الدولة » وتألق بهما حتى الذروة في التعبير عن البطولة العربية المتمثلة بالقائد العربي وبجنوده الشجعان ، وقد سميت المعركة « بالحدث الحمراء » لكثرة الدماء التي نزفت من جرحى الروم، يقول المتنبي بذلك :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم اي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم

فيتساءل الشاعر ، هل اللون الاحمر الذي صبغ قلعة الحدث تعرفه وتعرف مصدره من دماء قتلى الروم النازفة التي لطخت جدرانها ؟ وهل الحدث الحمراء تعرف اي الساقيين يسقيها ، الغمام ام الجماجم ؟ لكثرة الضحايا التي اسقطها الحمدانيون من اعدائهم الروم .

ثم يصف ويصور لنا المتنبي الخيول العربية ، وهو الولع بوصفها ، فيصور لنا هذه الخيول وقد طاردت فلول الروم المنهزمين في قمم الجبال ، وقد تبعثرت وتناثرت جثث قتلاهم فوق جبل «الاحيدب» بجوار قلعة «الحدث» عرسا لذلك المجد الحربي ، وما الاشلاء والجثث الا الدراهم التي تعود العرب ان ينثروها في اعراسهم وافراحهم على العروس فرحين مبتهجين ، ويقول : ان خيول سيف الدولة كانت تلاحق الروم المنهزمين في ذرى الجبال تفتك فيهم فتكا بسنابكها اعشاش النسور حيث تتكاثر من حولها جثث القتلى من الروم ، وكأنما تهدى اليها طعاما فكانت وليمة فاخرة لهذه النسور الجائعة ، حتى لتظن فراخها الصغيرة انك زرتها بامهاتها ، وقد سمعت صهيل الخيول ، فتطل من اعشاشها آملة ان تكون امهاتها وقد عادت محملة بالطعام وانت انما زرتها بجيادك المطهمة المدربة على صعود الجبال ، حتى اذا صعب عليها السير زحفت على بطونها كالافاعي في المرتفعات فيقول :

نثرتهم فوق الاحيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى ... وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتخ انك زرتها ... بامّاتها وهي العتاق الصلادم
اذا زلقت مشيتها ببطونها ... كما تتمشى في الصعيد الاراقم

ولم ينقطع المتنبي عن وصف معارك سيف الدولة طيلة بقائه عنده حيث كان يتغنى ببطولة القائد العربي هذا الغناء الملتهب الذي يزكي الحماس في نفس كل عربي ، لانه صدر عن قلب شاعر عربي موهوب وصادق. عاش يمجد البطولة العربية والفروسية الحقة المتمثلة بشخص البطل سيف الدولة الذي تالق نجمه في سماء الحروب الرومية - العربية حيث تحول الى ما يشبه الصخرة الصلدة الضخمة التي تتحطم عليها غزوات الروم وغاراتهم .

وكانت معركة « الدرب » اخر معركة وصفها المتنبي لقتال سيف الدولة مع الروم وكانت قصيدته فيه اخر ما قاله الشاعر قبل رحيله ومفارقته لسيف الدولة «وحلب» الشهباء ، وكان مما قاله ابو الطيب مخاطبا سيف الدولة في اخر القصيدة قوله الرائع :

القت اليك دماء الروم طاعتها ... فلو دعوت بلا ضرب اجاب دم

ولم ينقطع المتنبي عن وصف بطولة الامير الحمداني طيلة بقائه عنده ، وحتى بعد مفارقته له لم ينسه اذ ارسل اليه وهو في العراق سنة ٣٥٢ هـ هذا البيت في قصيدة (ما لنا جو يا رسول) :

انت طول الحياة للروم غاز ... فمتى الوعد ان يكون القفول

وكذلك نسي سيف الدولة كل ما ذكره المتنبي عنه حينما كان في مصر وارسل اليه ابنه بهدية فلم يجد المتنبي ما يشكره سوى شعره فيقول :

كلما رحبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا وانت السبيل
والمسمون بالامير كثير ... والامير الذي بها المامول

وهكذا نجد شعر (القوة) و (الفروسية) و (البطولة) في شعر المتنبي ينساب في قصائد المدح والفخر ووصف معارك سيف الدولة على السواء ، فهو كالبركان الثائر لايقذف الا الحمم والشرر الحارق فلنسمعه يحدثنا عن صدى العمليات الحربية الليلية التي كان سيف الدولة يقوم بها وينهال على اعدائه الروم فكان الشرر الذي يحدث من ضرب سنابك الخيل بالحصى هو المشعل الذي يضيء له ولجنوده الطريق فيقول :

اذا الليل وارانا ارتنا خفافها ... بقدح الحصى ما لا ترينا المشاعل

ويصف جنود سيف الدولة بانهم سريعو الوصول لساحة المعركة ومقارعة العدو ونزاله على ظهور خيول عربية مميزة فيقول :

فما شعروا حتى راوها مغيرة ... قباحا واما خلقها فجميل
سحائب يمطرن الحديد عليهم ... فكل مكان بالسيوف غسيل

ويصف الجنود العرب الحمدانيين بانهم متمرسون متدربون على قنص الاعداء فيقول :

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فاهون ما يمر به الوحول
ومن امر الحصون فما عصته ... اطاعته الحزونة والسهول

وان هدف سيف الدولة وكماته في قتالهم مع الروم هو القضاء على القوة الرئيسية للعدو فيقول :

الا ليست الغايات الا نفوسكم ... وليست لنا الا السيوف وسائل

وان سهام جند سيف الدولة لا تخطىء اهدافها ، فهي دوما تعرف أهدافها وتنكسر فوق بعضها البعض فيقول :

وهل يخطى باسهمه الرمايا ... وما يخطى بما ظن الغيوبا
اذا نكست كنانته استبنا ... بانصلها لانصلها ندوبا
يصيب ببعضها افواق بعض ... فلولا الكسر لاتصلت قضيبا

وان سيوف سيف الدولة وابطاله عربية اصيلة فهي عربية نزارية فيقول :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد ... فكيف اذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده ... فكيف اذا كان الليوث له صحبا

وان بطولة سيف الدولة وجنوده هي عادة مستمرة فهو معتاد على ضرب رؤوس اعدائه فيقول :

لكل امرىء من دهره ما تعودا ... وعادات سيف الدولة الضرب بالعدا

وان البطل الحمداني الذي تتمثل فيه الاخلاق العربية، يضحي بنفسه في سبيل حياة رجاله وليس العكس على عادة غيره من القادة فيقول :

كل يريد رجاله لحياته ... يا من يريد حياته لرجاله

وان البطل الحمداني السمح ، كريم ومن يكون كريما من بعده فقد اختتم الكرم والجود به ، كما انه لن نجد شاعرا بعد شاعره المتنبي الذي يستحق هذا الكرم فقد نسمع بشعر وليس له الا الاسم ، حتى ليحمد الانسان الله على بلاء الصمم فيقول :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته ... ان الكرام باسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد افسد القول حتى احمد الصمم

والمتنبي يعلن ان البقاء للاصلح ، وبذلك يكون قد سبق الفيلسوف الالماني « نيتشه » فيلسوف القوة عندهم بثمانية عصور فيقول :

فالموت اعذر لي والصبر اجمل لي ... والبر اوسع والدنيا لمن غلبا
وما الجد والثلبة و ... نيل المطالب الا للسيف
فلا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وبعد فان « ديوان المتنبي » ملحمة عربية ، ينبغي على الشباب العربي دراستها والعمل بها ، فهو مدرسة (اسبارطية) تعلم الشباب القوة واحتمال الشدائد والمصاعب والاهوال وحب الحرب والنزال في وقت نحن باشد الحاجة اليها لما تمر فيه امتنا العربية بظروف مشابهة لظروف القرن الرابع الهجري فهل من شاعر كالمتنبي يبعث فينا شبابا وشيوخا رجالا ونساء (الحماسة) والقوة لنكون مجتمعا قويا لا يعرف الضعف ، صامدا لا يعرف الهزيمة ولا التراجع .

ولعل حب المتنبي للفروسية والقوة لازماه حتى مماته ، فقد قال لعبده (سراج) لما قرب (فاتك) منه يريد قتله : يا سراج اخرج لي الدرع ، واخرجها ولبسها ودار بين الطرفين قتال ابدى فيه المتنبي الشجاعة والبسالة ولما عرف انه لابد مقتول ووجد ثمة فرصة للفرار ذكره غلامه ببيته المشهور : الخيل والليل ... فقال له

قاتلك الله لقد قتلتني وقاتل حتى قتل وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ على مقربة من مدينة بغداد .

الطموح للمجد في شعر المتنبي

ان طموح المتنبي وآماله كبيرة فهي بمستوى الجوزاء ويطمح في تحقيقها وظل يناضل ويكافح طيلة حياتـــه في سبيل المجد ، طلبه مرة عن طريق الدين فاخفق وطلبه مرة عن طريق الولاية فلم يتحقق وهكذا الا انه سقط قتيـــلا دون مطلبه كالنسر عين له على الجوزاء وعـــين له على السفوح ، قال ابو منصور الثعالبي :

وما زال في برد صباه الى ان اخلق برد شبابـــه وتضاعفت عقود عمره يدور حب الولاية والرياسة في راسه ويظهر ما يضمر من كامن وسواســـه في الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيـــلاء على بعض الاطراف ويستكثر من التصريح بذلك في مثل قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبـــر　　فالان اقحـــم حتى لات مقتحـــم

لاتركن وجـــوه الخيـــل ساهمـــة　　والحرب اقـــوم من ساق على قدم

وقوله :

ساطلب حقي بالقنـــا ومشايـــخ　　كانهم من طـــول ما التثموا مرد

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعـــوا　　كثير اذا شدوا قليـــل اذا عدوا

وطعن كان الطعـــن لاطعن عنـــده　　وضـرب كأن النـــار من حـــره برد

اذا شئت خفت بي على كل سابح　　رجال كان الموت في فمهـــا شهـــد

وكان كثيرا ما يتجشم اسفارا بعيدة ابعد من آماله، ويمشي في مناكب الارض ويطوي المناهل والمراحل ولا زاد له الا من ضرب الحرب على صفحة المحراب .

والشاعر شديد الثقة بنفسه ، بقوتها وشجاعتها ، بقلمه وشاعريته الثرة المطواعة كما انه يؤمن ويثق بمجد امته العربية وعزتها وكرامتهـــا ، وهو احد سيوفهـــا وفرسانها الاشاوس وهو مؤهل وعنده من الكفاءة لنيـــل هذا المجد ولن يطلبه من خارج وطنه العربي الكبير .

الطرح المجد عن كتفي واطلبـــه　　واترك الغيـــث في غمدي وانتجع

وهو لفرط ثقته بنفسه نراه يفتخر كثيرا بمناسبة وبدون مناسبة بقدرته وقوته وشاعريته فاذا كان الشعراء الجاهليون يفتتحون قصائدهم بالنسيب والتغزل بالديـــار والاحبة ، فان المتنبي يتغزل على طريقته الخاصة فيتغزل بقدود الرماح وبيض الصفاح فهي اعز احبائـــه ، قال في صدر قصيدة ، يمدح بها علي بن احمد الانطاكي :

اطاعـــن خيـــلا من فوارسها الدهر　　وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

تمرســـت بالافـــات حتى تركتهـــا　　تقـــول امـــات الموت ام ذعر الذعر

وهو الفتى العربي ، الابي ، وهو يرد الظلم عـــلى ظالمه ، فليعلم ذلك اهل مصر والعراق فيقول :

لتعلـــم مصر ومـــن بالعـــراق　　ومن بالعواصـــــم اني الفـــتى

واني وفيـــت وانـــي ابيـــــت　　واني عتـــوت عـــلى من عتـــا

وهو ابي لا ينام على ضيم ولا يستكين امـــام قـــوة اعدائه ولا يحاول مخادعة نفسه وتمنيتها بالاماني ، وانما هو صاحب نفس قوية ، شجاعة لا تهاب الردى والمـــوت الذي هو من طباع الشياه والنعم فيقول :

ليس التعلل بالامـــال مـــن اربي　　ولا القناعـــة بالاقلال من شيمي

ويخاطب نفســه هذا الخطاب الناري مشجعا اياهـــا مهونا عليها الموت فيقول :

ردي حياض الردى يا نفس واتركي　　حياض خوف الردى للشاء والنعم

ان لم اذرك على الارمـــاح سائلة　　فلا دعيت ابن ام المجـــد والكرم

ولقد كانت ارادته من حديد وكرامته فوق اي اعتبار في هذه الدنيا فيقول :

فثالـــة عيش ان تفـــث كرامتي　　وليس بفـــث ان تفـــث الماكـــل

لقد كان للمتنبي هدف سام يسعى اليه ويناضـــل من اجل نيله لذا ينتقل من بلد لبلد فيقول :

يقولون لي ما انت في كل بلـــدة　　وما تبتغي؟ ما ابتغي جل ان يسمى

وهو فارس ونفســه معجبة بالابطال ولا تعشـــق الا المجد والخلود ، وهو يكره كل ما هو ضعيـــف في النفس البشرية وخاصة ذلك النوع من الناس الذي يعيش في هذه الحياة دون ذكر ، ومن ثم يموت وكانه لم يكن شيئا مذكورا فيقـــول :

في الناس امثلـــة تـــدور حياتهـــا　　كمماتهـــا ومماتهـــا كحياتهـــا

وان نفســه شاذة عن الطبيعة البشريـــة ، فبينما الناس ينشدون الراحة ، والرفاهية والسعادة والطمأنينة والاستقرار ويعتبرونها حلمهم الامثل ، بينما نجد ان نفس الشاعر تجد لذة ما بعدها لذة في اقتحام الاخطار والمصاعب والمغامرة والالم فيقول :

سبحـــان خالق نفسي كيف لذتها　　في ما النفوس تراه غايـــة الالـــم

وهو ذو عزيمة وقوة ، وهو كريم وعلى قدر هاتين الخصلتين الحميدتين تاتي العزائم والمكارم فيقول :

على قدر اهل العزم تاتي العزائـــم　　وتاتي على قـــدر الكرام المكـــارم

وهو وحيد في خصاله هذه غريب بين ابناء مجتمعه كالنبي صالح في قومه فيقول :

انـــا في امـــة تداركهـــا الله　　غريـــب كصالـــح في ثمـــود

وان هذا الدهر يحكمـــه اناس صغار بتفكيـــرهم وتصرفاتهم وان كانت اجسامهم كبيرة فيقول :

فدهري ناســـه نـــاس صغـــار　　وان كانـــت لهم جثـــث ضخـــام

واذا كان المجد والرياسة لم يصلهما ، فعليه بالمجد الادبي ، وكان له ، فدخل اسمه وخلد في سجل الخلود وما كان اصدقه حين قال :

وما الدهر الا من رواة قصائـــدي　　اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

وهو لطول صراعه مع الايام وكثرة تجاربه ، يعطينا خلاصة تجاربه في الحياة ، وهي صادقة لانها بنت التجربة فهو يطلب من الانسان ان يعيش عزيزا او يمـــوت بشرف وكرامة فيقول :

عش عزيزا او مت وانـــت كريـــم　　بـــين طعـــن القنـــا وخفق البنود

ويطلب من الانسان ان يحيا حياة عزيزة كريمة ولو

هل تذكرين ؟

ما زال يرجو السعد في ناديك
يحيا هناك على ربوعك صادحا
لم يدرك الافراح الا مرة
اذكرته ، يشدو بالوان الهوى
ايام نلقى الطير في روض الهوى
هل تذكرين ؟ لقد تفرقنا فما
ما زال طيرا ، في رحابك صادحا
هدته آلام الزمان فلم يدع

قلب راى كل الملاحة فيك
كالطير مقرونا الى واديك
يوم التفت اليه دون شريك
شعرا ، ويفني العمر كي يعليك
والروح سكرى من مراشف فيك
بال الفؤاد على النوى يفديك
يستاف عطر الطهر في ناديك
ذكراك رغم السهد او يقليك

صناديد ـ الغربية ـ مصر

عبدالله السيد شريف

كانت في السعير ، وان يرفض الحياة الذليلة ولو كانت في جنان الخلد فيقول :

فاطلب العز في لظى ودع الذ ل ولو كان في جنان الخلود

ولنسمعه يحدثنا عن المجد الذي يبغيه والوسيلة للوصول اليه ويشير الى ان هذه الحياة اضيق من أن تتسع لآماله فيقول :

ذر النفس تاخذ وسعها قبل بينها — فمفترق جـاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة — فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى — لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كانما — تداول سمع المرء انمله العشر

ثم لنسمعه يحدثنا عن آماله ، وكيف يسعى لتحقيقها ويطلب منا بألا نبالي بما نجده ونلقاه في هذه الحياة من مصاعب وشدائد ومحن فيقول :

أريد من زمني ذا ان يبلغني — ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
ولا تلق دهرك الا غير مكترث — ما دام يصحب فيه روحك البدن

ولا ينسى الفخر بنفسه حتى في المواقف التي لا يستحسن فيها الفخر ، فلنسمع اليه وهو يخاطب كافورا فيقول :

فارم بي حيثما اردت فاني — اسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وان كا — ن لساني يرى من الشعراء

وهكذا عاش المتنبي طيلة حياته وهو يطلب المجد ، ويكافح من اجل الوصول اليه ركب اليه المكاره ، والمخاطر واقتحم الغمرات وتعرض في سبيله للمصاعب والمشاق ولكن دون جدوى ، وتخلف المجد الذي يبغيه ، واحتضنه المجد الادبي الذي خلده على مر الايام والعصور ، ولكن المتنبي ذو نفس تحلم بالمجد، بالسلطة ، بالرياسة بالسيف، بتضريب اعناق الملوك ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، وحين رجع بعد اسفاره الكثيرة وترحاله الشاق الى الكوفة ، وضمته الى صدره ، وهناك اعطانا زبدة تجاربه في قصيدتيه المشهورتين المقصورة ، والميمية ، واودعهما ذلك اللهيب المتاجج ، فمن قوله في الميمية :

حتى رجعت واقلامي قوائل لي — المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا ابدا بعد الكتاب به — فانما نحن للاسياف كالخدم

نعم يا ابا الطيب ، لا زلنا نحن العرب ـ في وطننا الممزق الذي تتكالب عليه قوى الشر ، نؤمن بمبدأ القوة لتحرير اراضينا المغتصبة من العدو الاسرائيلي وسلاحنا الكتاب والسيف .

المراجع

١ ـ مجلة الرسالة ـ السنة الثانية ـ السنة الرابعة ـ الاستاذ احمد حسن الزيات .
٢ ـ شعر الحرب في ادب العرب . الدكتور زكي المحاسني .
٣ ـ شوقي والمتنبي : نظرات في الجندية والحرب ، السيد فرج.
٤ ـ البطولة في الشعر العربي المعاصر سلسلة اقرا : الدكتور شوقي ضيف .
٥ ـ ديوان المتنبي .

دمشق

احمد سعيد هواش



ابراهيم المصري

ابراهيم المصري كما عرفته

بقلم حسين علي محمد

✿ ✿ ✿

الاستاذ ابراهيم المصري (١٩٠٠ ــ ١٩٧٩) احد الكتاب المصريين البارزين ، وهو واحد من اصحاب الاساليب في الادب العربي . حينما كنت طالبا في المرحلة الثانوية كنت اقرأ اقاصيصه التي تنشرها مجلة « الهلال » فتجذبني اليه ، وحتى عام ١٩٧٣ لم اكن قد قرأت كتابا له بعد ، وكنت اعمل مدرسا في مدرسة عبد الله الشرقاوي الاعدادية بالقرين (من اعمال مركز « ابو حماد » محافظة الشرقية ــ بمصر) وفي أثناء سفري في اكتوبر ١٩٧٣ الى القرين رأيت مجموعة قصصية بعنوان « ارواح ظامئة » مع الباعة فاشتريتها وقرأتها في سهرة واحدة ، وكتبت له رسالة مفتوحة نشرت في مجلة « الاديب » ــ عدد ابريل ١٩٧٤ ــ قلت له فيها :

« سعدت كثيرا وانا اقرأ مجموعتك القصصية الاخيرة « ارواح ظامئة » .. وهذه القصص ــ يا سيدي ــ تستحق التقدير . فهي ــ اولا ــ قصص بمعنى الكلمة تستكمل ادواتها الفنية ، ثم هي ــ ثانيا ــ لا تلجأ الى (البهلوانية) الاسلوبية التي اصبحت واحدة من سمات القصاصين الجدد » .

« اننا قد نقبل (بهلوانيات) اللغة في الشعر .. الذي تختلف فيه التجربة عن تجربة القصة .. ولكننا يا سيدي حينما نقبل على قراءة قصة فاننا ينبغي ان نفهم هذه القصة . وقصصك يا سيدي اسلوبها بسيط رائق ممتع . وقصصك ــ ثالثا واخيرا ــ تلجأ الى تحليل النفس البشرية ، والكشف عن العوامل التي تدفع الانسان الى سلوك معين . وهذه القصص نادرة في ادبنا العربي الذي لا يجنح الى التحليل .. الخ » .

وبعد قراءة هذه القصة تعرفت عليه فارسل رسالة مطولة يشكرني على ما كتبته في الاديب ويوافقني على ملاحظتي ان القصص تقدم لنا « اجسادا ظامئة » لا « ارواحا ظامئة » .. ثم امتد جسر التواصل بيننا عدة سنوات حتى توفي وقد ارسل لي في هذه الفترة نحو عشر رسائل بحثت عنها حينما اردت هذه الكلمة للاديب فلم اجد غير خمس رسائل اثبتها هنا .

ــ ١ ــ

عزيزي الاستاذ حسين علي محمد

اشكرك كثيرا على اهتمامك بي ، وعلى هذه الرسالة المفتوحة التي نشرتها (الاديب) هذا الشهر .. لقد قدمت الكثير من الكتب للمكتبة العربية طوال خمسين سنة ولم اظفر بمثل هذه الكلمات الطيبة الصادقة التي احس الصدق من بين حروفها ..

لقد قرأت ايضا في (الاديب) انك تعد دراسة في ادبي وقصصي ، ولا اخفي سعادتي بذلك ، وكنت اود ان اكتب لك لكن عنوانك لم يكن معروفا لدي . وانتظرت حتى قرأته اليوم في الاديب فكتبت لك .

اشكرك على ملاحظاتك على العنوان واستبدال « ارواح ظامئة » بـ « اجساد ظامئة » .

سأرسل لك (الكأس الاخيرة) و (ابراهيم المصري حياته وادبه) للاستاذ فوزي سليمان ، وارجو ان اسمع عنك كل خير . ودمت لي

ابراهيم المصري
٢٧ــ٤ــ١٩٧٤

ــ ٢ ــ

عزيزي الاخ الاستاذ حسين علي محمد

تحية طيبة خالصة . وتهنئتي لك بعيد الاضحى المبارك اعاده الله عليك وعلى اسرتك الكريمة بالصحة والعافية والاقبال والسعد .

ودمت للمخلص الوفي

ابراهيم المصري
٢٢ ــ ١٢ ــ ١٩٧٤

←

- ٣ -

عزيزي الاستاذ حسين علي محمد
تحية طيبة

وصلتني رسالتك واشكرك جزيل الشكر على اهتمامك بي . واقول لك اني سأبعث اليك بعدة كتب لي بين دراسات وقصص . كما سأرسل لك كتاب « الادب الحي » (١) الذي يحتوي على مسرحية « الانانية » اما مسرحية « نحو النور » فالكتاب الذي طبعت فيه لا وجود له عندي مع الاسف .

ولقد كتبت انا للمسرح عدة مسرحيات ، وقد تناولها النقاد عند ظهورها في دراسات لم اعن بجمعها للاسف ايضا . وحبذا لو زرتني في القاهرة لازودك بمعلومات كثيرة عن الحركة المسرحية عندنا وتاريخها ولي في ذلك عدة مقالات نشرتها مجلة « الهلال » ولا املك منها غير نسخة واحدة .

اما عن قصة حياتي فانا ماض في كتابتها ، وهي لم تظهر بعد ، وبمناسبة مسرحياتي فقد كتب عنها المازني وتوفيق دياب وسلامة موسى وطه حسين الذي هاجم (نحو النور) فرد عليه المازني في (السياسة الاسبوعية) وامتدح المسرحية ولا سيما الفصل الاخير . ولقد دارت كتابات هؤلاء الادباء حول مسرحية « الانانية » و « نحو النور » و « الفريسة » التي مثلت على مسرح رمسيس كما مثلت « الانانية » . واما الكتب التي اصدرتها فتجدها مذكورة في كتاب « فوزي سليمان » (٢) .

واما الكتب الجديدة التي صدرت لي فهي « اغلال القلب » طبع دار المعارف . « خبز الاقوياء » طبع دار المعارف . « صراع الحب والعبقرية » طبع دار المعارف .

وسيظهر في اوائل الشهر القادم (يوليو) في سلسلة « كتاب اليوم » كتاب « الناس والحب » وهذا الكتاب دراسة وتأملات في حياتنا العاطفية والزوجية .

كما ستظهر في منتصف اغسطس القادم مجموعة قصصية بعنوان « ضحكات القدر » في سلسلة (روايات الهلال) التي تصدرها دار الهلال .

وانا اشكرك جزيل الشكر مرة ثانية ، واتمنى لو زرتني في مصر الجديدة لينفسح المجال للتفاهم بيننا .

وعشت ودمت للمخلص

ابراهيم المصري
٩ - ٦ - ١٩٧٥

- ٤ -

عزيزي الاستاذ حسين علي محمد
تحية طيبة

كنت قد ارسلت لسيادتك منذ شهر خمسة كتب وانتظرت ان ترسل لي ما يفيد وصولها اليك ، ولكن لم يصلني رد . سلامي الحار لك . وبخصوص الحوار الذي تجريه معي للنشر في (الاخاء) الايرانية ، فارجو ان تزورني مساء اي يوم لنتناقش في الكثير من القضايا الادبية والفكرية التي اثرتها في مستهل شبابي والتي لم اتخل عنها .

سأرسل لك مجددا كتابي « خبز الاقوياء » بالبريد وارجو ان يصلك هذه المرة .

ودمت للمخلص الوفي

ابراهيم المصري
٤ - ٨ - ١٩٧٧

- ٥ -

عزيزي الاخ الاديب المربي الاستاذ حسين علي محمد

تحياتي . مبارك ترقيتك التي انت جدير بها .

وردت رسالة مؤرخة في ٢٨-٧ والاخبار التي بها سأنشرها مقالاتك عني جيدة (٣) والملاحظات الختامية عن فن القصة القصيرة عندي طيبة - لكن متى ستنشر ؟

بخصوص ردي على الاسئلة سأنتهي منها قريبا وارسلها لك . كتاب « الادب الحي » لم اجده في الوقت الحاضر .

تحياتي مجددا . ودمت لي

ابراهيم المصري
١٦ - ٨ - ١٩٧٧

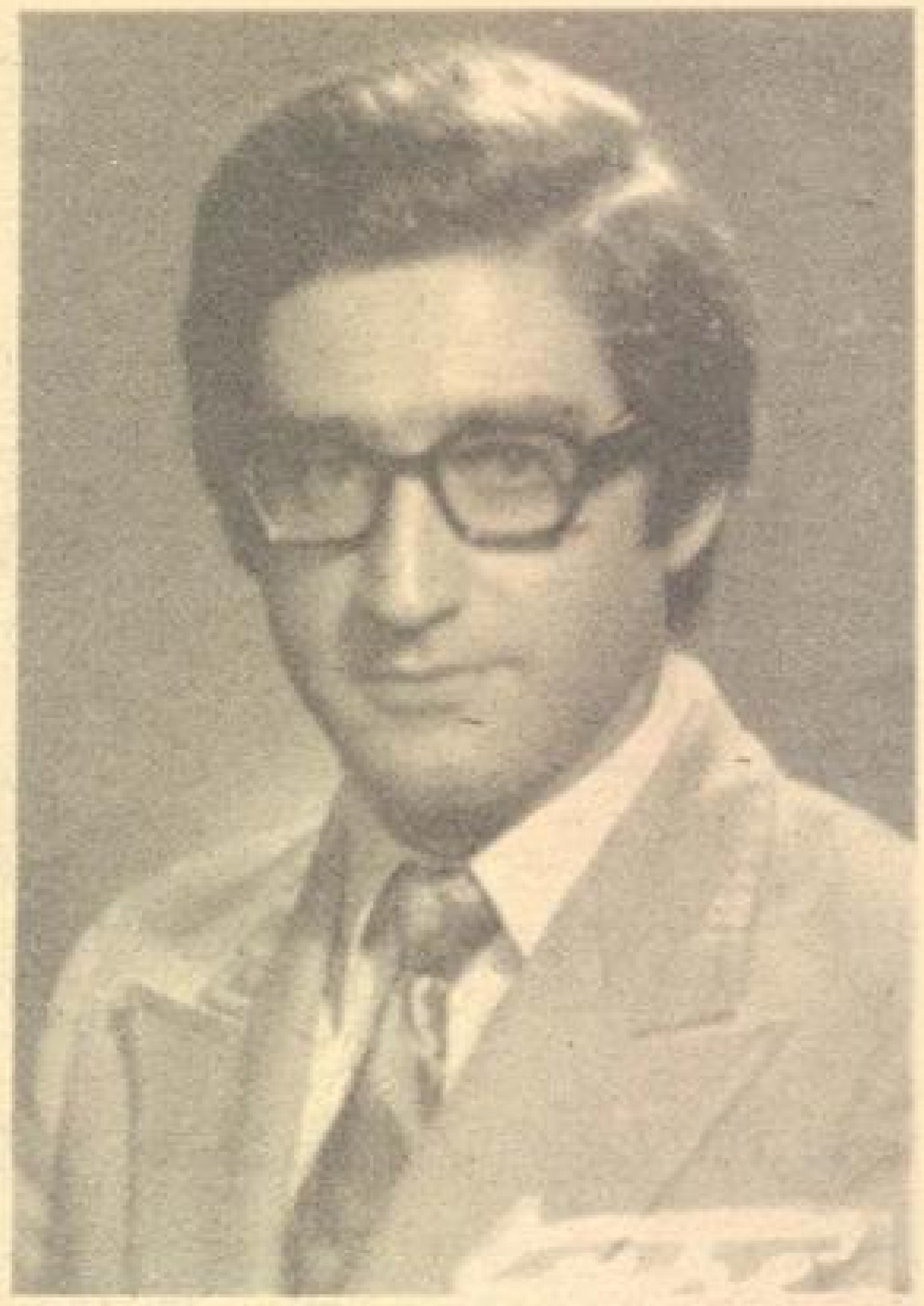
ولم التق بالاديب ابراهيم المصري الذي انقطعت رسائله عني في العامين الاخيرين ، ولم يصلني رد على الاسئلة التي كنت اثير فيها العديد من القضايا ..

١ - لم يصلني هذا الكتاب ، لعله لم يرسله . او لعله ارسله وضاع بالبريد .

٢ - يقصد كتاب (ابراهيم المصري - حياته وادبه) للاستاذ فوزي سليمان .

٣ - يقصد مقالاتي في ادب ابراهيم المصري : دراسات نصية - وهي خمس مقالات تتناول خمس مجموعات قصصية لابراهيم المصري ثم مقالة ختامية بعنوان (ملاحظات ختامية على فن القصة القصيرة عند ابراهيم المصري) .. ولم انشر ايا من هذه المقالات الست بعد .

ديرب نجم المحطة - مصر حسين علي محمد



الدكتور اديب صعب

أديب صعب في : مملكتي ليست من هذا العالم

قصائد تعيد الى الشعر مجده القديم

***

عندما نشرت « المستقبل » عام ١٩٧٨ ، قصيدة « الخبز والملح » للشاعر اديب صعب ، جاعلة اياها موضوع غلاف ، فلانها وجدت في القصيدة ، رؤيا للاحداث الحاصلة في لبنان حاليا ، فضلا عن كون القصيدة من الشعر الكبير الباقي ، وهناك قصائد اخرى نشرها الشاعر في « المستقبل » . وهذه تشكل جزءا من مجموعته « مملكتي ليست من هذا العالم » التي صدرت اخيرا عن « دار النهار للنشر » في بيروت . وهي المجموعة الثانية لاديب صعب بعد « اجراس اليوم الثالث » (١٩٦٩) .

هذه المجموعة سيكتب ويقال الكثير عنها . فهي من الشعر الذي تفصل بينه وبين امثاله سنوات طويلة . وهنا نترك للشاعر ان يحاورنا عن مملكته وعن الشعر .

● حين صدرت مجموعتك الشعرية الاولى « قيثارة الضياء » كنت في السادسة عشرة ، كتب الكثير حولها . ادونيس وصفك آنذاك بانك « معجزة شعرية » . وبعد صدور « اجراس اليوم الثالث » عام ١٩٦٩ ، اجمع شعراء الجيل السابق ـ ومنهم خليل حاوي وادونيس وبلند الحيدري ـ على انك طليعة شعر . ماذا تظن انك اضفت الى الشعر العربي .

ـ الاجابة التامة ، او المنهجية ، عن هذا السؤال هي عمل الناقد . الا اني اود القاء بعض نور على مفهوم الاضافة .

اذا تناولنا الشعر العربي التقليدي لوجدناه كله موزونا ومقفى على الطريقة التي باتت تسمى « عمودية » . فهل يعني هذا ان ابا نواس لم يضف شيئا الى امرىء القيس او عنترة ، وان المتنبي لم يضف شيئا الى ابي نواس ، وان خليل مطران لم يضف شيئا الى المتنبي ؟ كلا . ان كلا من الشعراء المذكورين وسواهم ، ترك صوته المتميز في الشعر العربي . واذا تناولنا قصيدتين لشاعرين من هؤلاء ، تجريان على وزن واحد وقافية واحدة ، لوجدنا اختلافا بين هذه وتلك ، يشار اليه بعبارة « النفس الشعري » .

وهذا يصح على الشعر الموزون والمقفى الذي يعتمد نظام التفعيلة ، لا نظام البيت ، وكذلك على قصيدة النثر فشعر خليل حاوي غير شعر بدر شاكر السياب ، وشعر ادونيس غير شعر حاوي ، وشعري غير شعر ادونيس . ومن ناحية قصيدة النثر ، نجد ان شعر انسي الحاج غير شعر محمد الماغوط .

لقد ظن بعض مدعي الحداثة ان الاضافة تكون في ابطال الاوزان والاشكال المعروفة . من هنا يتوهم بعضهم ان قصيدة النثر هي كل الشعر ، وانها الغت ما قبلها . كما ظن بعض شعراء التفعيلة ان الشكل الذي اعتمدوه ابطل شعر البيت . لكن هذا هراء . فهل لثلاثة عقود ان تمحو سبعة عشر قرنا ؟ .

اني لا ادافع عن اي شكل من اشكال الشعر ، بحيث اقول انه الشكل الوحيد الممكن . فالشعر العمودي وشعر التفعيلة وقصيدة النثر ، واي بناء شعري اخر ، لها الحق في ان تسمى شعرا اذا كان ما يكتب بواسطتها فيه صورة وفيه خيال وفيه عاطفة وفيه صناعة فنية .

ربما كان الانطلاق من مفهوم الاضافة يفوت علينا

عناصر مهمة لدى الشاعر الذي نقرأ او ندرس . وربما كان افضل ، لهذا السبب ، ان نتناول كل شاعر ، بل كل قصيدة ، على حدة ونبحث فيها عن الجودة .

● نعود الى تجربتك انت : اين يكمن تفردك ؟

ـ اذا حق لي ان اكون ناقد نفسي، فاني اجد عناصر النفس الشعري الخاص بي في الاتي ، من غير ان يشير الترتيب المذكور الى مرتبية مقصودة .

اولا : سلامة اللغة وسلاستها ، من حيث المفردات والتراكيب ، علما ان الفاظي لا تنتمي الى قاموس جمالي محدود .

ثانيا : السيادة على وزن الشعر الذي هو مصدر الموسيقى الاهم في القصيدة . لقد استخدمت اوزانا كثيرة من الشعر العربي ، كما ادخلت تجديدات وزنية وشكلية واضحة . وفي المجموعة الجديدة ، يظهر هذا الجديد ، على نحو خاص في قصيدة « نكروفيليا » (ص ٤١ـ٤٧) و « اول النهار » (٦٩ ـ ٧١) .

ثالثا : اعتماد الرمز الديني لتحقيق ما يسميه الشاعر ت. اس. اليوت : « البديل الموضوعي » للحالات الذاتية . وهدف هذا البديل توسيع التجربة الشخصية لكي يدركها الاخرون . والرمز الديني لدي يفضي الى رؤيا انسانية شاملة ، بما في ذلك المجتمع والسياسة . هذا الرمز هو مفتاح الرؤيا الشعرية التي اتصور بها الوجود .

رابعا : تجاوز الغنائية الصرف عبر شعر وجودي يجمع عناصر ملحمية ومسرحية وغنائية في القصيدة الواحدة .

هذا لا يعني اني وحدي ، بين الشعراء ، كتبت بلغة سليمة وسلسة وعفوية ، او اني وحدي نوعت اوزاني ولم اتقيد بوزن واحد او اثنين او ثلاثة، او اني تفردت في اعتماد الرمز الديني او ان سواي لم ينظم شعرا يمكن ان يسمى وجوديا بالمعنى المذكور فوق . وبقى التميز او التفرد في طريقة استخدام هذه العناصر في اجتماعها .

● لماذا اصررت على الوزن في حين ان الاكثرية اليوم متجهة نحو قصيدة النثر ؟

ـ جوابي عن هذا السؤال ليس دفاعا او تبريرا . فانا لا احتاج الى هذا . ان كل شكل شعري مقنع هو تبرير ذاته . وما سياتي ليس الا ايضاحا .

اذا تجاوزنا مفهوم « الاكثرية » الذي ينطوي على مقدار كبير من الغموض ويرمينا التصدي له في لجة سحيقة ، فاني ابادر الى القول باني كتبت شعري موزونا ومقفى على اساس التفعيلة ، لاني وجدت في هذا الشكل ما يحافظ على الموسيقى ، وفي الوقت نفسه يحمل حالاتي وتصوراتي .

والفرق بين شعر التفعيلة وشعر البيت ان الاول ينطلق من وزن ما ، كالرمل ، بحيث نجد في سطر معين خمس تفعيلات (فاعلاتن) ، وفي ما يليه سبعا ثم ثلاثا ، ثم سبعا ، ثم اثنتين ، الخ . . هذا على سبيل المثال ، اما الرمل التقليدي فمن اشكاله : « فاعلاتن فاعلاتن فاعلن » وهنا يجب ان يتكرر في الصدر والعجز .

واني ـ وان انتهجت لنفسي هذا الشكل ـ لست ضد الشعر العمودي ولا ضد قصيدة النثر . ونحن نقع على الجيد والرديء في هذه الاشكال جميعا . لقد كتبت ، في مطلع حياتي الشعرية ، قصائد عمودية ، نشرت عددا منها في صحف ، لكني لم انشرها في كتاب . ولا مانعة لدي من ان اكتب قصائد عمودية واخرى نثرية . المهم ان تقنعنا القصيدة بكونها تبريرا لذاتها .



غلاف المجموعة

الا ان ثمة اشكالا في الشعر العربي الحديث، المكتوب على اساس التفعيلة ، باتت مبتذلة ، لانها لا تصدر عن شعراء اتقنوا الاصول . خذ مجلة « الاداب » مثلا ، في عزها ، تجد فيها ، ازاء الجيد ، قصائد كثيرة ركيكة على وزن متكرر هو « المتدارك » (فعلن) . لكن الركاكة ليست من الوزن في ذاته ، بل من الكتاب انفسهم ، خذ المجلات والمجموعات الموزونة اليوم ، ان كثيرا من قصائدها يجري على المتدارك المستحدث (فاعلن) ، الذي اطلقه السياب وطوره ادونيس كثيرا . هذان كتبا به قصائد عظيمة لكنه اليوم بات اجترارا ، على ايدي كتاب ليست لهم موهبة ادونيس او السياب .

سيد الوزن وسيد اللغة لا يفعل هذا . العبد يفعل هذا . والشاعر الفذ يخلق لغة .

● قلت ان شعرك يتناول الانسان ، بما في ذلك ابعاده الاجتماعية والسياسية . اذا ، في شعرك مواقف سياسية ؟

ـ ان الشعر الوجودي يشمل الانسان في ابعاده كلها ، بما في ذلك البعد السياسي . بهذا المعنى ، ينطوي

شعري على مواقف سياسية ، لكن غايتها كرامة الانسان ووجهه الاصيل . وفي رأيي ان الاحزاب والعقائد والمؤسسات السياسية ، والمؤسسات على مختلف انواعها، كلها تحد كثيرا من انطلاق الشاعر والفنان . اني غير ملتزم باي مبدأ او مذهب سياسي . مذهبي الوحيد هو الانسان وراء جميع المبادىء والالقاب، الانسان فيوحدته وانكساره وخوفه وسعيه الدائم الى الخلاص .

قصيدة « الخبز والملح » فيها موقف يمكن أن يسمى سياسيا : انه نقد لمحاولة السياسيين تقزيم الانسان ! اضف الى ذلك ان فيها علاقة حميمة بين الانسان وارضه هذا الموقف نجده في قصيدة « مملكتي ليست من هذا العالم » التي اعطت المجموعة اسمها — اي مملكة نختار : مملكة قيصر ام مملكة الله ؟ والشيء نفسه يقال على القصائد الثلاث الطويلة المنطلقة من الحرب في لبنان : « من جر على شعبي هذا الويل ؟ » « اعطني هذا الغريب » « نكروفيليا » .

شعري ، نعم ، فيه مواقف سياسية تنقد بعنف سياسات العالم ، سعيا الى الانساني في الانسان . لكنه ليس سياسيا بمعنى انه منبري او خطابي . في القديم كما في بدايات القرن الحالي ، كان الشاعر يهز المنابر . كان صحافي امته ، الناطق بلسانها ، اليوم جاء من يأخذ عنه هذا العبء . الاتصالات اصبحت علما وفنا مستقلين، تتفرع منهما علوم وفنون عدة .

● **قصيدتك الطويلة « الخبز والملح » ، التي كتبتها عام ١٩٦٩ ونشرتها « المستقبل » موضوعا لغلاف عددها السابع والستين (بتاريخ ٣ حزيران — يونيو ١٩٧٨) ، هل نعد ما جاء فيها تنبؤا بالحرب في لبنان ؟**

— « الخبز والملح » كتبت بين ١٩٦٨ و ١٩٦٩ ، وفي لبنان آنذاك ، وقبل ذاك ، بوادر لما انفجر بعنف ابتداء من ١٩٧٥ . لا شيء يأتي من لا شيء . ولكن لا يمكنني ان اعد ما جاء في « الخبز والملح » وصفا لما كان . الشعر عندي ، في اي حال ، ليس وصفا لاحداث خارجية ، فهو ليس تاريخا ولا صحافة منظومين ، ولا هو بالوعظ السياسي او الديني . الحساسية الشعرية مرتبطة بالرؤيا ، وهي تتغلغل الى البذار قبل ان تصبح ثمارا . الشعر طريقة للنظر الى الاشياء .

والقصيدة وجدت طريقها الىغلاف « المستقبل » لان على راس المجلة من يملك هذه الحساسية ، غير ان هذا لا يعني ان « الخبز والملح » اهم ما في مجموعتي الجديدة .

ان جميع قصائد المجموعة سواء لدي . واود ان اشير الى « نكروفيليا » التي تجمع ، الى التصور الذي تعطيه ، وزنا جديدا يستعمل للمرة الاولى في الشعر العربي ليس من السهل أن يكتب المرء موسيقى جديدة ، ويكون المكتوب بها شعرا ويكون عفويا ويكون الانسان قويا الحضور فيه. واني اتوقع ان يقوم اتباع ومقلدون كثيرون لهذا الوزن ، وان يظهر فيه — كما ظهر في سواه — الجيد والرديء .

● **هل نشرت كل الشعر الذي كتبته ؟**

— هناك شعر كثير نشرته في صحف ولكن لم انشره، لغير سبب ، في مجموعة . ويمكن اختصار هذه الاسباب بالاتي : ان شعري الذي وجد طريقه الى « مملكتي ليست من هذا العالم » وقبلها الى « اجراس اليوم الثالث » ، افضل من الذي بقي في الصحف او في حوزتي من غير نشر اما هذا الاخير — اعني شعري الذي لم انشره حتى في الصحف — فهو قليل جدا .

ومما بقي في الصحف قصيدتان طويلتان هما « يد الله » (نشرت في مجلة الاديب) و « يوحنا المعمدان » (نشرت في جريدة لسان الحال) . والاثنتان سبقتا مجموعة « اجراس اليوم الثالث » ومعظم شعري كنت انشره في « البيدر » مجلة والدي الشاعر وليم صعب ، الذي اخذت عنه الشعر .

وقد علمتني خبرتي ان الشاعر عندما يجد طريقه ويرتاح لطريقته ، يصبح كل ما يكتبه راضيا عنه ، او بالاحرى قلما يكتب ما لا يمكن أن يرضى عنه .

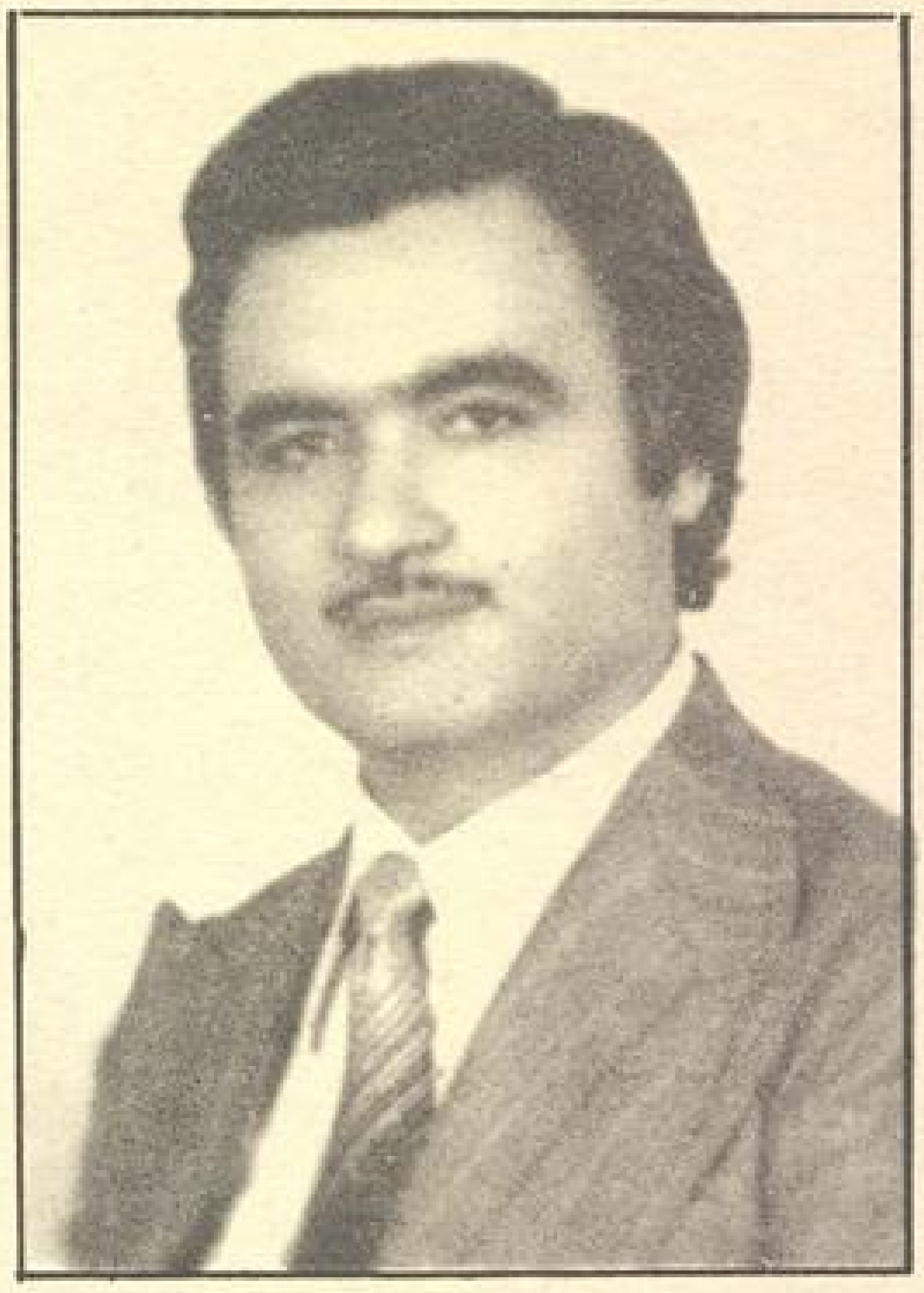
● **هل ترجم شيء من شعرك ؟**

— هناك مقطع من « اجراس اليوم الثالث » ترجم الى الارمنية ونشر عام ١٩٦٧ ، قبل سنتين من صدور المجموعة . وفي العام ١٩٧٤ ، تولى شاعر يوناني ترجمة ستة مقاطع بعنوان « صباح يوم احد » (ص ١٢٧ — ١٣١ من المجموعة الجديدة) الى اليونانية ، ونشرها بعد سنتين في مجلة ثقافية تصدر في اثينا .

اني من القائلين بالتفاعل بين ثقافات منطقتنا ، ومن اهمها اليونانية والارمنية . ويؤسفني ان تكون مجلة «أهيفان» الارمنية توقفت عن الصدور في اواخر الستينات وهي كانت تصدر في بيروت . كما يؤسفني الا يكون من حضور للغة اليونانية في بلادنا ، علما ان كثيرا من تراثنا القديم كتب بها . والحق علينا جميعا في هذا التقصير الثقافي .

الا ان هناك مرضا منتشرا بين بعض كتبة الشعر في بلادنا ، يمكن ان نسميه « جنون العالمية » ، وهذا المرض هو ظنهم ان ترجمة بعض قصائدهم الى اللغات الاخرى ونشرها تجعل منهم شعراء كبارا او « عالميين » . لكن المهم ان تكون شاعرا كبيرا في لغتك ، وان يتمكن شعرك من شق طريقه الى اهل لغتك .

عن جريدة المستقبل — باريس



الدكتور فوزي عطوي

جورج صيدح ورسائله المطوية

(٢)

حول كتاب « خليل مطران »

بقلم الدكتور فوزي عطوي

* * *

وفي شهر شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، اصدرت لي دار الهلال في القاهرة ، في سلسلة كتاب الهلال ، العدد ٢٧٨ كتابي « خليل مطران شاعر الاقطار العربية » الذي وضع مقدمته الشاعر المصري الراحل صالح جودت رئيس تحرير الهلال ونائب رئيس مجلس ادارة دار الهلال آنذاك . وبعد ان قرا صيدح هذا الكتاب في باريس، كتب الي رسالة مؤرخة في ١٩-٢-١٩٧٤ جاء فيها :

« اخي وشاعري فوزي

اهنيك على شمول دراستك عن الشاعر الخليل ، واشكرك لمرورك على مقال قديم لي (عام ١٩٥٧) ، اذ كنت في بيروت ، والمجلة (٢٣) التي نشرته بقيت في بيروت ، فنسيت وجوده ، وقرأت ما نقلته منه كفصل كتبه غيري .

العجيب الغريب في بحثك ، تلك الحاشية في صفحة ٧٤ القائلة انك لم تجد الابيات المذكورة في مقالي ، في « الشوقيات » او غيرها ، مع انك نشرتها في الصفحة ١٤٥ منسوبة لشوقي . فكيف ترتاب في صفحة ، وتنشر ما رابك في صفحة اخرى ؟

يدهشني نشاطك وخصب انتاجك ، خصبا يحافظ على جودة الكلام ، بل احيانا تتفوق على نفسك ، وتبشر باستمرار الصعود الى القمم ، ان شاء الله .

انا عائد اليوم من مصح احتجزني شهرا ، وغارق في البريد المتراكم اثناء غيابي . فعفوك ان اوجزت ، ولك عواطف محبتي الدائمة » .

وفي ١٠-٤-١٩٧٤ ، يكتب الي جورج صيدح رسالة جديدة من باريس ، بعد ان تلقى مني نسخة من كتابي عن « جبران خليل جبران : عبقري من لبنان » الذي نشرته الشركة اللبنانية للكتاب ضمن سلسلة « ينابيع الفكر العربي» التي اصدرت منها خمسة كتب لي عن: «الجاحظ دائرة معارف عصره » ، « ابن الرومي شاعر الغربة النفسية » ، « المتنبي شاعر السيف والقلم » ، « احمد شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ » ، و « جبران خليل جبران عبقري من لبنان » وقد ورد في رسالة صيدح ما يلي :

« عزيزي الاخ الكريم فوزي ،

لغيرك يقال ، «امير الصناعتين» ، اما انت فأصبحت امير الصناعات العديدة ، جامع اطراف الشعر والنثر والشرع والقانون المجيدة ، بارك الله بهذه المزايا الفريدة.

ارحب بما تتحفني به من آثارك ، واخصها عندي دراستك عن جبران في سالف الزمان ، يوم تركتني في زوايا النسيان .

اما ازمة الورق ، فلماذا نتركها على عاتق صاحب « الاديب » وحده ، ونحن اصحاب المصلحة في المجلة اكثر منه ؟ تعال نشترك في تزويده بما يحتاج لعام مقبل، كما نشترك في ثمرة جهده وصبره على بريد « الاديب » .

ولا ازيدك من اخباري كيلا اسطو على وقتك الثمين، ولا اهدي اليك نفحات ازهاري ، لان ليس عندي ، كما عندك ، (شيرين ونادين ولبنى) (٢٤) ثالوث الحسن والاسماء الحسنى ، رعتهن العناية بعينها اليمنى ، تاركة للقرينة ولك العين اليسرى ، دفعا لعيون الحساد عن روضة الاكباد » .

رد وايضاح الى صيدح

وقد اضطررت اثر هذه الرسالة التي نشرت في عدد ابريل ١٩٧٤ من « الاديب » ان ارد على الصديق الشاعر برسالة مطولة ، جاء فيها :

« يا اخي الشاعر الصديق الكبير

هزتني كلمتك التي وافاني بها البريد من باريس ،

ونشرتها مجلة « الاديب » في عدد نيسان (ابريل) الماضي، فقد اكبرت فيك ، رغم ما انت عليه من حالة صحية ، ذلك الدأب المستمر والاطلاع اليومي على ما تصدره دور النشر العربية ، ولا سيما متى كان المؤلف على لائحة اصدقائك الكثر .

وكنت انوي ان اوافيك بنسخة مما تيسر لي الحصول عليه من كتابي « خليل مطران ، شاعر الاقطار العربية » الصادر في سلسلة « كتاب الهلال » بالقاهرة ، فاذا بك كما عهدتك على الدوام ، سباق الى المكرمات ، واذا برسالتك توافيني ، حاملة الي تهنئاتك بصدور كتابي الجديد .

وكم كنت اتمنى لو ان الكتاب تنزه عن بعض الاخطاء التي لا مفر منها ، وخصوصا متى كان المؤلف مقيما في بلد والكتاب يطبع في بلد آخر ، اذ كان من المتعذر علي ، وانا في بيروت ، ان الاحق تصحيح مسودات الكتاب في القاهرة، فوقعت فيه اخطاء بعضها طباعي ، وبعضها مرده الى السهو وعدم الانتباه . وما احسبني بهذا الصق بنفسي صفة الغفلة او التغافل ، وانما هو منطق الطباعة لا يرحم منطق المؤلفين .

اما بالنسبة لما ورد في الحاشية صفحة ٧٤ عن روايتي لابيات شوقي على ذمتكم ، ثم اثباتي للابيات ذاتها منسوبة الى شوقي ، في الصفحة ١٤٥ من الكتاب فان لذلك قصة حرية بالذكر والاعتبار :

فقد كنت اطالع مقالكم الذي نشرتموه في العدد الخاص بخليل مطران الصادر عن مجلة « الرسالة » عام ١٩٥٧ ، في عداد ما كنت اعددته من مراجع الكتاب ، فأعجبتني الابيات الشوقية في امتداح شاعرية المطران ، فسجلتها على ورقة مستقلة ، على امل الرجوع اليها ، ومع عظيم ثقتي بصحة مراجعكم ، فقد قادتني امانة البحث العلمي الى ضرورة التثبت من ورود هذه الابيات في احد اجزاء « الشوقيات » الاربعة ، وكنت فرحا بمجموعة جديدة مجلدة تجليدا انيقا اضفتها الى مكتبتي، بعد ان استحصلت عليها من احدى المكتبات في بيروت ، وعلى عادتي كنت اخرجت الاجزاء الاربعة القديمة من « الشوقيات » التي عندي ، وحولتها الى مكتبة اشقائي في منزلنا الوالدي .

وفوجئت حقا بان المجموعة الجديدة لا تتضمن اي اشارة الى ابيات شوقي ، فقلت في نفسي : ان الابيات جميلة ، ولا ريب ان صديقنا الاستاذ جورج صيدح قد اعتمد مراجع قد لا تكون متوفرة لدي ، فذكرت في حاشية الصفحة ٧٤ انني اثبت الابيات على ذمتكم .

وفيما كنت ماضيا في تاليف الكتاب ، اضطررت للرجوع الى احد كتابين الفتهما عن شوقي وهما : « احمد شوقي امير الشعراء » ، و « شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ » فوجدت في النماذج الشوقية المثبتة في الكتاب الاول منهما قصيدة شوقي في خليل مطران ، فادركت على الفور حل اللغز ، وقلت في نفسي : هذه المجموعة الجديدة المطبوعة بطريقة « الاوفست » مزورة وناقصة . ومن خلال رجوعي الى المجموعة القديمة في المنزل الوالدي عثرت مجددا على القصيدة ، فانكشف السر ، وصدق تقديري .

وعلى الاثر ، صدف مرور صديقنا المشترك الاديب الناقد الكبير الاستاذ رضوان ابراهيم (٢٥) ببيروت ، فاغتنمت فرصة تلطفه بزيارتي لاثقل كاهله برسالة الى صديقنا الكبير الاستاذ صالح جودت (٢٦) رئيس تحرير « الهلال » تتضمن تصويبات عدة ، ومنها تصويب هذه الحاشية النافلة التي لم يعد لها من داع ، ولكن يبدو ان دواليب المطبعة كانت قد دارت ، وسبق السيف العذل .

فهل تقبل اعتذاري ، وهل تشاركني احتقاري لهؤلاء العابثين بالتراث الادبي ، من اجل تعبئة الجيوب ، كأن الامانة العلمية لا تعنيهم في شيء كثير او قليل . وعلى ذكر مجلة « الرسالة » التي نشرت مقالتكم عن خليل مطران ، اذكر ايضا ان رئيس تحريرها الاديب الناقد الاستاذ جان كميد قد هيأ لي ، في مقاله المقارن المنشور في « الرسالة » حول شاعرية المطران في قصيدته «نيرون» وشاعرية الياس ابي شبكة في قصيدته « شمشون » ان انهل من معينه ، واستأنس بآرائه السديدة ، ونظرته العميقة الى الفن القصصي المتجدد لدى الشاعرين .

ولكن السهو والسرعة في التأليف اوقعاني فيما كنت لا احبه لنفسي ، ولا للاديب الصديق الاستاذ كميد الذي ربما تسببت في تشويه فكرته ، اذ ظهر من سياق البحث ان قصيدة « شمشون » ، وهي لابي شبكة ، قد نسبت كقصيدة « نيرون » الى خليل مطران ، فلعله والقارىء معه يقبلان اسفي واعتذاري » .

معارك ادبية

ومن طريف الصدف ان تنشر مجلة « الاديب » في العدد نفسه رسالة من جورج صيدح موجهة الى الصديق الدكتور عبد المنعم خفاجي ، وفيها غمز ولمز موجهان الى مقال طويل لي كنت نشرته في « الهلال » عن خليل مطران، فاضطررت ازاء هذه المعركة الادبية الصامتة التي افتتحها الصديق الكبير ان ارد عليه مرتين : الاولى في «الاديب» والثانية في « الهلال » ، بعد ان كرر غمزه ولمزه في مقال آخر نشره في « الهلال » ايضا .

اما ردي الاول ، فقد قلت فيه : « لصديقي الشاعر المهجري الكبير جورج صيدح اياد وافضال احاول ان اقابله بمثلها ما وسعتني طاقتي ، فأراني كابيا حيث اراه مجليا. وقد حاولت في العدد الماضي (مايو) من « الاديب » ان اوضح له ظروف الالتباس الذي حصل في كتابي « خليل مطران شاعر الاقطار العربية » ، والذي اثار الاستاذ

صيدح تساؤلا حوله في عدد « ابريل » ، وذلك حول ابيات احمد شوقي التي نظمها في امتداح شاعرية المطران.

لكنني رايته في عدد « مايو » ذاته يدبج رسالة ادبية رفيعة الى صديقنا الكبير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي مهنئا اياه بعمادة كلية اللغة العربية في جامعة اسيوط ، ومشيرا الى بعض « المطرانيات والذكريات » حيث عرج على العدد الخاص من مجلة « الهلال » الذي صدر في نوفمبر ١٩٧٣ متضمنا ابحاثا ومقالات عن خليل مطران ، ومنها مقالة لي عنوانها « خليل مطران شاعر الفلسفة والمصير » استغرقت عشر صفحات في مجلة « الهلال »

وفيما اغتنمها مناسبة كريمة لتهنئة صديقي العميد الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بالعمادة التي انساقت اليه كرسيها عن جدارة ، ولذكر ما له هو الاخر من اياد كريمة علي ، بفضل حبيب الادباء العرب الاستاذ وديع فلسطين ، منذ ان عقدت « رابطة الادب الحديث » في القاهرة ندوة خاصة لمناقشة ديواني « شموع المعبد » الصادر عام ١٩٦٢ ، فاني استميح الصديق الكبير الاستاذ جورج صيدح عذرا اذا اضطررت في هذا العدد من « الاديب » ايضا الى توضيح ما التبس عليه ، مما قراه في مقالتي في عدد نوفمبر ١٩٧٣ من مجلة « الهلال » .

قال الاستاذ صيدح ما حرفيته (الاديب ــ عدد مايو ١٩٧٤ ــ صفحة ٥٢) : « واذ اقلب صفحات « الهلال » اجد البلاغة كلها في كلمات رئيس وزراء لبنان (تقي الدين الصلح) والفصاحة كلها في قصيدة رئيس التحرير (صالح جودت) ، ولن اعلق على مقال « شاعر الفلسفة والمصير » بل اتناساه كيلا اتكدر على صديقي (فوزي عطوي) كاتب المقال الذي نعت الشاعر المبدع الحكيم المجدد العميق الافكار ، البعيد النظرات ، بالشاعر المتفلسف » .

واعود الى مقالتي في « الهلال » ، وقد انتظمت فيما بعد فصلا من فصول كتابي الصادر في سلسلة « كتاب الهلال » عن « خليل مطران شاعر الاقطار العربية » في الصفحات (٨٢ ــ ١٠٠) فاراني قلت (الهلال ــ عدد نوفمبر ١٩٧٣ ــ صفحة ٢٩) :

وقلت في ذلك المقال : « وعلى الرغم من ان خليل مطران غنى واجاد الغناء ، فهو قد تفلسف ايضا ، واجاد التفلسف ولا سيما في نظرته الشفيقة الى مصير الاشخاص والاشياء . لكن خليل مطران ، اذا استطاع ان يظهر في شعره بمظهر الشاعر المتفلسف ، فهو لم يكن الشاعر الفيلسوف باي حال من الاحوال .

وانهيت مقالتي بقولي : « أن خليل مطران لم يكن منقبا عن نظام فلسفي لهذا الكون ، ولكنه كان شاعرا متعمقا متسائلا ، باحثا عن الحقيقة والخير والجمال ، ومن هنا قولنا فيه : ان مطران كان شاعرا متفلسفا ولم يكن شاعرا فيلسوفا ، وان بينه وبين ابي العلاء المعري كثيرا من المشابه في هذا الصدد ، وان كان المعري ابعد شأوا واعمق غورا في اضفاء الرداء الفلسفي على شعره » .

بعد هذا احسب ان لكلامي معنى واحدا لا ثاني له ، وهو ان خليل مطران ادخل الومضات الفلسفية علىجوانب من شعره ، فكان شاعرا متفلسفا ولم يكن فيلسوفا ، بما تجوب فيه الفلسفة من ابعاد واعماق ، اي كان « الشاعر المبدع الحكيم المتجدد العميق الافكار ، البعيد النظرات كما وصفه الاستاذ صيدح ، ومن اجل ذلك عقدت مقالتي التي استغرقت عشر صفحات من مجلة « الهلال » .

ويبدو ان صديقي واخي الكبير الاستاذ صيدح مر بالمقالة مرورا سريعا في بداية الامر ، فساءته كلمة «الشاعر المتفلسف » اذ فسرها بمعنى الشاعر « المتفذلك » الذي لا يعرف شيئا من الفلسفة ، وهو تفسير احسب صديقي يتخلى عنه ، لو تأنى واعاد قراءة المقال .

واحسبه بعد ذلك ، لا يتكدر علي ، وهو العالم في كل حال بانالانتقاد لا يكدرني، وانما يحملني على الشكران والعرفان لمن يسدد خطاي الى الصواب . وشكرا من القلب للاستاذ صيدح ، الصديق الحبيب » .

٠٠ ورد وايضاح من صيدح

وعلى اثر هذا الرد الايضاحي ، وجه الي الشاعر جورج صيدح رسالة اخوية في ١٥ـ٧ـ١٩٧٤ ، وقد جاء فيها قوله :

« اخي الكريم الاستاذ فوزي عطوي

اكبرت وفاءك كصديق اكباري لعطائك كاديب ، حينما قرأت الان مقالك الموجه الي في مجلة « الاديب » . ان حرصك على سلامة المودة التي تربطنا ، من كل ريبة تلامسها ، يزدهيني ويستوجب شكري . ولكنت كتبت اليك منذ شهر ، ما يريح بالك ، لو ان المجلة وصلتني في موعدها ، ولم تتعقبني في الجولان بين قمم « الالب » البيضاء ، قبل ان تعود ادراجها الى باريس اليوم .

فيا عزيزي . ان لكتابك عن « خليل مطران » منزلة في نفسي لا تحد منها ملاحظتي الطفيفة على كلمتك العنيفة « الشاعر المتفلسف » ، وان حرمان مطران في شرعك من لقب « الفيلسوف » لا يحط من مقامه السامي او من مجده الخالد . فعلام هذا الوجسان ن اعتراضي على لقب خلعته عليه بحسن نية ، ولم تنتبه الى احتمال تأويله اسوأ تأويل ؟

فنحن العامة اصطلحنا على اعتبار « التفلسف » نعت ازدراء نلصقه بمن يهرف بما لا يعرف ، فنقول : « انه قد تفلسف ! » اما الفلسفة ، فنحن نحترمها وان لم نفهمها . ولو استفتينا سيبويه رحمة الله عليه لقال لنا : « تفلسف يعني تظاهر بالحذق وادعاه » (معجم المنجد ــ صفحة ٥٩٣) ، و « تفلسف يعني سلك طريق الفلسفة ولم يحسنها » (معجم الرائد ، صفحة ٤٢٦) فهل هذا

ما تريده من حكمك على شاعر القطرين وامير الصناعتين ؟

وما كان ضرك لو ابقيته شاعرا مفكرا متحررا (حاف بلا مزيد من الاوصاف) كما خلق وكما عاش الى نهاية المطاف !

ليتك سألت الزمخشري عن سر تلك « التاء » اللعينة التي يضعها على رأس الكلمة ، فينقلب معناها راسا على عقب ؟

بالتاء على « بكى » يحقر من « تباكى » ، وبالتاء على « حلا » يستهجن من « تحالى » وبالتاء على « ظرف » يهزأ ممن « تظارف » ، وبالتاء على « فلسف » يزدري من يتفلسف . فهو المسؤول امامك ، لا انا !

واخيرا ، يا اخي المعطاء (كما يناديك وديع فلسطين زين الادباء) ارجوك لا تهدر عطاءك فيما لا يفيد احدا ، ولا يستحق اهتماما . دع هذه القضية جانبا ، فهي معركة في فنجان ، واقصر جهدك على المزهر المثمر في حدائق الشعر ، ومجاني البيان البكر ، كما بدأت في مطلع العمر . اني :

رايت الشرق في عينيك يبكي وللامجاد في فمك احتضار (٧)

اتضرب على الدف ، وفي يدك هذا القيثار ؟ ولماذا لا تلتزم قولك في مطولتك الثمانينية :

ارق الشعر لمح وانخطاف وابلغه التقضاب واختصار

كما سجل صيدح على صفحة اخرى ملاحظة حول هذه المعركة سوف اشير اليها بعد قليل .

استدراكات مطرانية

اما ردي الثاني على ما اثاره صيدح في مجلة «الهلال» حول الموضوع نفسه فقد جاء فيه :

« في عدد سابق من مجلة « الهلال » الزاهرة (يوليو ١٩٧٤) ، مقالة قيمة لاستاذنا الشاعر المهجري الكبير الاستاذ جورج صيدح حول « ذكرياته المطرانية » ، ايام كان مقيما في القاهرة ، حيث تسنى له ان يعرف شاعر الاقطار العربية معرفة قريبة ، وان يتعرف الى اخلاقه النموذجية ، والى شمائله العالية التي تواترت اخبارها ، ودلت على اصالة الانسانية في نفس الشاعر الكبير .

ولقد تبين لي من خلال قراءتي لمقالة الاستاذ صيدح ، مدى وفاء الذي نعتبره اميرا من امراء الوفاء ، ورابطة عقد وثيقة ، بين اصدقائه ومحبيه وقارئي نثره وشعره .

ولعل مقالته المنشورة في مجلة « الرسالة » (السنة ٣ - العدد ٥ - ١٥ مايو ١٩٥٧) عن « خليل مطران الشاعر الانسان » آية خرى من آيات وفائه نحو ارباب الاقلام ورواد الفكر الراحلين منهم والدارجين بعد في مدارج الحياة .

لكنني عجبت كل العجب لموضوع عاد الاستاذ صيدح ، مرة جديدة ، الى اثارته على صفحات « الهلال » بعد ما سبق له ان اثاره في مجلة « الاديب » اللبنانية (عدد مايو ١٩٧٤ - صفحة ٥٢) حول عدد الهلال في شهر نوفمبر ١٩٧٣ عن خليل مطران ، وبوجه خاص حول مقالتي المنشورة في العدد المذكور بعنوان « خليل مطران شاعر الفلسفة والمصير » .

وقلت في تلك المقالة بعد ان سردت اقوال صيدح في « الهلال » : « ورغم اني كنت نشرت ردا توضيحيا في عدد يونيو ١٩٧٤ من مجلة الاديب حول ما التبس معناه من مقالتي على صديقي الشاعر المهجري الكبير ، فيبدو لي ان اختياره منبرا جديدا لتوجيه الانتقاد الادبي الحرفي ذاته الى مقالتي عن المطران ، لا يترك لي حق الخيار بين الرد او عدم الرد عليه ، لاقتناعي التام بأن من حق قراء « الهلال » ، كما كان من حق قراء « الاديب » ان يعرفوا الحقيقة من مظانها ، فلا يلتبس عليهم بالتالي ما اراه التبس على الاستاذ صيدح » .

وبعد ان اوضحت بالتفصيل ما كنت اوضحته في « الاديب » ختمت كلمتي بقولي : « بعد هذا اشكر للشاعر المهجري الكبير الاستاذ جورج صيدح انه اساغ لي ، بسبب مقاله المنشور في « الهلال » حديثا جديدا عن خليل مطران ، كما اساغ لي الادلاء ببعض الاستدراكات والايضاحات لوجه العلم ، ولوجه الدقة والموضوعية في البحث الادبي » .

وحول هذا الرد الثاني ، كتب الي جورج صيدح ، من باريس الرسالة المؤرخة في ١٥-٧-١٩٧٤ التي سبقت الاشارة اليها ، وعلى صفحتها الاخيرة كتب ما حرفيته :

« كلام بيني وبينك : افضي اليك بسر يثير الدهشة ، هذا المقال الذي صدر في « الاديب » لم ارسله انا اليه ، بل ارسله الاخ وديع فلسطين رأسا من القاهرة . كنت ارسلته اليه في تاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣ على اثر اطلاعي على كتابك المطراني ، فاردت ان يعرض المقال على الصديق الاستاذ محمد عبد الغني حسن الذي هو طرف فيه ، ويتبع رأيه في النشر او في الاهمال .

ومضت شهور على تلك المراسلة ونسيت المقال : لم اسأل وديعا عنه ، ولا طالبته بنشره ، الى ان فوجئت اليوم بقراءته منشورا في « الاديب » ، بعد ان فوجئت قبل يومين بقراءته في مجلة « الهلال » عدد يوليو ، و«الاديب» عدد يونيو .

كيف ؟ لماذا ؟ ما هو السر ؟ يجوز ان تسأل الاخ وديع عنه وتكتم خبره .

انا اصبحت مسخرة القراء ، يظنون اني اوزع ما اكتب على العديد من الصحف ، تهافتا على الشهرة ، وانا - والله - ازهد الناس بها في هذه المرحلة من عمري . ولله امري » .

عند هذا الحد ، اعتبرت القضية منتهية ، ورضيت بالتفسير الذي قدمه الاستاذ صيدح ، خصوصاً واني

اعرف ظروف النشر في الصحف ، فما انا بغريب عن اورشليم ؟

واندلعت الاحداث اللبنانية المتمادية منذ عام ١٩٧٥، واضطر كل منا الى ان يضرب في جهات الارض الاربع ، هربا من الجحيم الحربي ، وبحثا عن كرامة لقمة العيش، وكانت الرسائل التي اوجهها الى الاصدقاء ، من خارج لبنان ، هي الصلة الوحيدة بهم ، وبتاريخ ١٢-٤-١٩٧٧، كتب الي صيدح من باريس الرسالة التالية :

« الاخ الكريم الحميم فوزي ،

للمرة الثانية تفتقدني بكلماتك الحلوة ، وللمرة الاولى تعطيني عنوانا للجواب . شكرا لك مرتين ، ودعاء الف مرة بأن يرعاك من اعطاك النجوم الاربع ، زينة الحياة الدنيا .

كنت مرتاحا لابتعادك عن جحيم لبنان في ذلك الزمان اما الان ، فارجو ان يعود البلبل الى عشه ، ويستأنف تغريده من بيروت ، كما عود قراء « الاديب » وغير « الاديب » . ما اشوقنا الى بيانك الحبيب .

ترى هل يفكر الاخ البير اديب ببعث المجلة ام وأدها وترحم عليها ؟ تسالني عن اخباري فتحرجني لانها كلها قتام وهموم وامراض : (كلما داويت جرحا سال جرح) . والشيخوخة اعجزت من يداويها . قلما ابارح منزلي ، وكثيرا ما انظم القصائد من سريري ، وأواصل الاخ « الوديع » برسائلي ، واندب اخواني الراحلين قبلي :

راح فرحات ثم معلوف قبلي رب هب لي ان اسبق القرويا

يهمني الاطمئنان عن عودتك الى بيروت بعد ان وفيت قسطك للعلم والادب في محاضراتك . وفقك الله، ونفعنا بعطائك السخي المستمر ، ودام لي عطفك الثري ، اعتز وانعم به مدى العمر » .

حول مقال في « النهار »

ومن باريس ايضا ، كتب الي جورج صيدح بتاريخ ٢-٥-١٩٧٧ الرسالة التالية ، بعد ان قرأ مقالا لي في جريدة «النهار» عن الاهوال التي قاساها منشىء « الاديب » في حرب السنتين ، وقبل ان يضطر في شهر ابريل ١٩٨١ الى ترك منزله ومكتبه اللذين تعرضا لعشرات القذائف والشظايا . يقول صيدح في رسالته :

« اخي الالمعي فوزي ،

اكتب اليك ، وفي يدي قصاصة مقالك عن عميدنا البير اديب ، وفي عيني دمعتان حائرتان بين مجلة «الاديب» وصاحبها الحبيب ، وفي قلبي شاغل مؤلم عن حالته ، صحيا وماديا ، بعد المحن التي قاساها ، والتي لم يتعرض لها مقالك المؤثر الرائع في جريدة « النهار » .

لقد ارسلها الي الاخ وديع فلسطين من القاهرة ، فارسلتها بدوري الى مجلة « المراحل » في سان باولو (البرازيل) حيث للاديب ارفع مكانة واقدم شهرة . وليتك كتبت عنوانه الحالي الذي يهم الجماهير من المعجبين . اما ان قابلته شخصيا فلا تنس عواطفي نحوه ونحو اسرته الكريمة ، وشوقي لجلسة ، لا سبيل اليها الان ، في حضرته امام مكتبته . واظن لو كان جميع انصاره مثلك ومثل وديع لاستطاع استئناف الجهاد ، وبعث المجلة من الرماد .

بتاريخ ١٢-٤-١٩٧٧ ارسلت اليك جوابا على رسالتك الكريمة عنونته « فندق الخليج » في البحرين . هل تسلمته ؟ (٢٨)

وختاما احيي نجمك الصاعد في سماء الادب والبيان يا اوفى واحب الاخوان » .

وفي اواخر ١٩٧٧ كتب الشاعر صيدح الي :

« عزيزي الاخ فوزي

اتنسم اخبارك بشوق وارتياح مرتين في الشهر من « الوديع » الحبيب اولا ، ومن الصحف والمجلات ثانيا ، بينما انت لا تسمع شيئا عني لان دوريات بيروت ، ما عدا الاديب ، قررت ان تأكل الطعم ، وتبصق على الصنارة !

لم اقرأ دورية لبنانية منذ سنتين ، مكتفيا بصحافة مصر ، يتبرع بها وديع فلسطين ، وصحافة سوريا من حين الى حين . اما صحافة المهجر ، فدونها اهوال من الحاكمين بأمرهم بالبريد البليد !

ان صح الراوي ، فأنت وضعت حدا لرحلاتك ومحاضراتك ، وعدت الى مقرك البيروتي بقلمك الظمآن الى الحديث عن لبنان ، الحريص على تذكارات الاخوان . آخر ما قرأته لك رسائل المرحوم نظير زيتون التي جددت احزاني على الاديب الذبياني ، فجئت اعرض عليك ملف رسائله الضخم المحفوظ عندي اليوم ، المحكوم عليه بالاعدام غدا ، فالنار جائعة الى التهام مكتبتي بكاملها ، وسوف تبلغ مرامها عن قريب .

ليس في دريتي من يفهم العربية حتى يحتفظ بالمكتبة والملفات ، متى فارق صاحبها الحياة . وقس على ذلك مؤلفات ومراسلات تراكمت في باريس منذ عشرين عاما ، قادمة من الشرق والغرب ، عرضة للحرق والنهب .

ووديع يعترض على هذا المشروع ويعتبر الرسائل امانة في عنقه ، لم تكتب للنشر . اما غيره كثيرون ، فيعتبرون الموت انعتاقا من السرية ، وانطلاقا الى ميدان الحرية ، ان كان في النشر فائدة ادبية عمومية .

وبعد ، فهل لي ان اعرف شيئا عن مشاريعك لليوم وللغد ؟ هل ارتبطت بمهمات في لبنان ؟ ام تنوي الانتقال الى غيره من البلدان ؟ وهل ترف اغصان الزيتون حول مائدتك ، ام تعيش وحيدا مع قرينتك ، كما اعيش انا منذ عشرين عاما ؟

واخيرا سؤال : اعرف عاطفتك نحو ادباء المهجر وولعك بآثارهم . فهل طالعت كتاب الذكتور عيسى الناعوري « ادب المهجر » في طبعته الثانية ؟

انا عجزت عن طبع كتابي عنهم ، لاني اتعامل مع

لبنان المنكوب . اما هو فنجح في مشروعه الموكول الى دار المعارف في مصر ، فسرني نجاحه ، وتلكأت في مطالعة كتابه لاسباب صحية واجتماعية قاهرة ، الى ان كتب الي صديق من بغداد يسألني عن سبب العداوة بيني وبين مؤلف الكتاب الذي ، بعدأن اثنى على ادبي ، رماني بسهم مسموم ، فقال حين قال في صفحة ٤٣٥ : « ان شعر صيدح في السنوات الاخيرة لا ينبض بالحيوية ، ففي وطنياته تغلب الخطابية والعنترية والنثرية والركاكةبدليل مجموعته « شظايا حزيران » التي تدل على ان عهد الشعر الجيد ، عند صيدح ، قد ذبل وانتهى امره » (يا للبشارة!)

امام هذه الهجمة التي تعمد المؤلف فيها التحقير والتجريح ، مع حكم الاعدام على الشيخ المريض المضام ، جعلني ارد عليه بمقطوعة دفاعية هجومية لم ارسلها اليه، ولا نشرتها في عمان اكراما لخاطر صديقي وصديقه جعفر الخليلي ، ولكني ارسلتها اليوم للنشر في سان باولو حرصا على مكانتي وكرامتي هناك .

والغريب ان لا وديع ولا عبد الغني حسن ولا غيرهما في القاهرة اعترض على هذا التحامل . ختاما ابثكاشواقي وعواطفي الاخوية » .

حساسية .. وسوء تفاهم

وكان صيدح قد ارفق هذه الرسالة بقصيدته الهجائية للدكتور عيسى الناعوري ، ووجه نسخة ثانية منها الى الاستاذ البير اديب ، لكنا راينا في حينه عدم نشر تلك القصيدة ، وان اكن قد ذكرتها ، بعد وفاته ، في مقال ضاف كتبته عنه في جريدة « النهار » ، وكان اول مقال يكتب عن صيدح في البلاد العربية ، بعد رحيله .

لكن الحساسية الشديدة التي كان صيدح قد اصيب بها في اواخر حياته كان لا بد ان تقوده الى انفعال اعترف بصحة مبرراته بالنسبة اليه ، رحمه الله ، لكنني كنت ضحيته البريئة بسبب خطأ غير مقصود وقع فيه الكاتب المهجري في البرازيل الاستاذ عبد اللطيف اليونس .

فبتاريخ ٤-٣-١٩٧٨ ، كتب جورج صيدح من باريس رسالة ادبية بعنوان « الى الاخ فوزي عطوي » وارسل بها مباشرة الى الاستاذ البير اديب لكي ينشرها في مجلة « الاديب » .

والرسالة ، نصفها مكتوب بخط الاستاذ عبد اللطيف اليونس وهو جزء من الرسالة التي كان قد بعث بها الى صيدح ، ونصفها الثاني مكتوب بخط الشاعر الصديق الكبير جورج صيدح تعليقا على ما ورد في رسالة اليونس .

واما النص الحرفي للرسالة فهو التالي :

« الى الاخ فوزي عطوي

وقد اطلعت على مجلة « الاداب » العدد الاخير ، وقرات رسالتك الموجهة الى فوزي عطوي ، فنسختها وارسلتها اليه .

انت دائما على السنتنا هنا ، مثلما انت في قلوبنا وافكارنا ، وكافة الاخوان يهدونك تحياتهم وكم اكون شاكرا اذا تلطفت واشعرتني بوصول هذه الرسالة ، او لعل الضمير الانساني ينتفض في صدور موزعي البريد ، فيسلمونك بعض الرسائل التي لم تستلمها . ويا اطيب وانبل من عرفت ، لك مني اعطر تحية » .

عبد اللطيف اليونس

وقد علق صيدح على هذا المقطع بقوله :

« ورد هذا الخبر في رسالة كتبها الاستاذ العزيز عبد اللطيف اليونس من بونس ايرس بتاريخ ١٨ يناير ١٩٧٨ ، فاستغربت ان تكون الرسالة المذكورة وصلت الى مجلة الاداب بعد ان نشرها الاخ فوزي عطوي في اديب يناير . واغرب من ذلك ان يكلف نفسه الاستاذ الكبير بنسخ الرسالة ثم بارسالها الى فوزي عطوي نفسه ، وهو الذي تلقاها من صيدح وعن له نشرها ، اتراه يعيد نشرها عند استلام نسخة اليونس ؟ اكراما له ؟! وانما الاعمال بالنيات » .

اما الصفحة الثانية من الرسالة الصيدحية ، فمؤلفة بدورها من نصفين : النصف الاول قصاصة من جريدة الاهرام وضع لها بخط يده عنوانا : « نزار قباني في جريدة الاهرام » وعنوان القصاصة المطبوع « اني الف ازدريه » . وفيها :

« اعرف انني لا املك مثله ناصية التعبير ! ذلك انها صناعته ، كل تجارته كلمات ، حتى نزاله كلمات (...) . الاهرام تصلني هدية من الاخ وديع فلسطين ، رزمة منتخبات على ذوقه كل اسبوع . منذ اسبوع تسلمت اعداد فبراير ومارس . وهذا الصباح وصلت رزمة ديسمبر ، وامس رزمة يناير ، بريد يمشي الى الوراء ، هذي اعجوبة العصر ! »

اما تعليق صيدح على ادب ا شتائم السخيف الذي لا ينال من المكانة العظيمة التي احرزها نزار قباني في نفوسنا وقلوبنا ، رغم كل ما نختلف معه عليه من توجهات فنية ، فقد كان ممتزجا بنبل الشاعر الكبير ، وغيرته السمحاء على الشعر والشعراء ، وبالتالي فانه لم يترك لاحد بعده من مزيد للدفاع عن الاخ الشاعر الكبير نزار قباني .

واما تعليقه على رسالة عبد اللطيف اليونس ، فليسامحه الله عليه ، خصوصا وانه لا ذنب له سوى ذنب الانفعال العاجل ، ولو انه تأنى وكتب الي مستوضحا لانجلى كل شيء امام ناظريه .

والحقيقة ان حرصي على المحبة الصافية التي جمعتني به ، منذ ان كان يرعى خطواتي الاولى ، وينتقد ادبي بروح ابوية صادقة فاتقبل نقده بما اعرفه في نفسي من رحابة الفهم والتقدير ، جعلني ابادر فور ان اعطاني الاستاذ البير اديب رسالته الموجهة الي ، عن طريق الاديب فأكتب اليه رسالة اوضح له ما اشكل عليه من امر رسالة

مجرد سؤال

اليس حراما ان حبا مدللا ترعرع في قلبي وقلبك ، يذبح ؟
وانت التي في كفها تورق المنى وفي قلبها الشعر الرقيق المجنح ؟
واني كما تهوين انت فانت لي على شرعة الحب المثالي مطمح
اصارع شتى العاصفات اصدها فتجرفني والحب لا يتزحزح
ويأبى شموخي ان يذل لصبوة ولكنها الايام تاسو وتجرح
سلمت ايا صيداحة الايك للهوى يناغيك في ايك الصبابات صيدح

بغداد ص.ب ٤٦٧ باقر سماكة

عبد اللطيف اليونس ــ سامحه الله ــ فاليونس لم يقرأ الرسالة الا في « الاديب » كما قرأها صيدح نفسه ، ولما سطر رسالته الى صيدح ، ذكر اسم مجلة « الاداب » بدلا من « الاديب » فظن الرجل انني اعدت نشر الرسالة مرة جديدة في « الاداب » ، مع ان « الاداب » لا تدرج في موادها اي باب لرسائل ادباء ، وهذه مجموعات « الاداب» وهذا صاحب الاداب الصديق الكبير الدكتور سهيل ادريس الذي يشهد انني لم انشر مثل هذه الرسالة ــ الازمة ، في مجلته الزاهرة .

ولست الان ــ وقد رحل الصديق الحبيب الوفي الى رحاب ربه ــ في مقام يسيغ الرد على شيء من اللهجة الغاضبة (الظاهرة خصوصا من خطه المضطرب ، ومن التشطيب المتكرر في سطورها) ، فقد طيبت خاطره برسالتي عن ذنب وهمي لم ارتكبه ، وكل ما استطيع قوله انني لم انشر رسالته ، كما تنشر جميع الرسائل الادبية في « الاديب » الا بعد اقتراح وموافقة من منشىء الاديب الذي يشهد على هذه الحقيقة ، بدليل ان الغالبية العظمى من رسائل صيدح الي لم يسبق نشرها ، وان عملية النشر تمت لمصلحة جورج صيدح نفسه ، وترضية له عن شعور الاسى الذي حملته رسالته بسبب النقد الموضوعي العلمي الذي وجهه اليه الصديق الدكتور عيسى الناعوري وبالتالي فلم تكن لي ــ كما يتضح من نصها الكامل ــ اية مصلحة في نشرها ، او في اعادة نشرها ، او في نشرها مرة ثالثة ، كما كان يتساءل باستغراب وانفعال !

وفي اي حال ، فاني ان كنت قد كشفت الان هذه الاوراق المطوية ، بدعوى الامانة الادبية والتاريخية ، فاني شكر أخي الاستاذ عبد اللطيف اليونس على اهتمامه بنسخ رسالة صيدح الموجهة الي ، لكنني ما زلت منذ ١٨ يناير ١٩٧٨ (تاريخ رسالته الى صيدح) انتظر وصول رسالة اليونس الي . ولعل البريد قد تأخر « قليلا » في ايصالها !!

أغلى الاصدقاء

والان ، وقد اصبح هذا الشاعر المهجري الصديق الغالي في رحاب الحق ، فان داعي الوفاء لذكراه الكريمة ليدفعني الى القول بأن جورج صيدح كان انسانا كبيرا ، وشاعرا كبيرا نبيلا ، وان غربته الاختيارية الاكراهية التي فرضها على نفسه بسبب زواجه من عقيلته الفرنسية الفاضلة اضفت على نفسه مزيدا من الشعور بالوحدة ، وهو الذي امضى حياته ، خلا فترات قصيرة ، في دنيا الاغتراب ، ابتداء بمصر ، ومرورا باميركا ، وانتهاء بباريس حيث مثواه الاخير .

ويا اغلى الاصدقاء ،

بعد اعوام على رحيلك الابدي ، انشر ما انطوى من رسائلك الادبية ، فتصبح ملكيتها مشاعا بيني وبين احبائك . انها نفثاتك الطيبة ، قبلتها يوم وردتني منك ، بكل ما فيها من الترفق وبكل ما فيها من القسوة ، واتشبث بكل ما فيها ، بعد غيابك . فقد كنت في منزلة الاب الرحيم القاسي ، وما احب ان يخيب ظنك في البنوة الروحية التي جمعتني بك فهل تقر بها عينا ، في عالمك الابدي ، وهل ترضى بها سلاما مني عليك ، وتحية مني اليك ؟!

---

٢٣ ــ مجلة « الرسالة » اللبنانية التي كان يراس تحريرها جان كميد ، عدد ايار ــ مايو ــ ١٩٥٧ .

٢٤ ــ قبل ولادة ابنتي الرابعة كارولين عام ١٩٧٦ .

٢٥ ــ توفي في القاهرة عام ١٩٧٥ .

٢٦ ــ توفي في القاهرة عام ١٩٧٦ .

٢٧ ــ هذا البيت والبيت الذي يلي هو من قصيدة لفوزي عطوي تقع في ثمانين بيتا وعنوانها « ولي من دوحة الحب الثمار » نشرت في « الاديب » و « الارشاد الاجتماعي » في يونيو ١٩٧٤ .

٢٨ ــ هذه الرسالة لم تصل ، بسبب انتقال محل اقامة فوزي عطوي الى فندق الهيلتون في البحرين ، بعد ان كان مقيما في فندق الخليج .

فوزي عطوي

بناية اسكندراني رقم ٢
شارع الجامعة العربية ــ الطابق السابع ــ بيروت

قصة

لقاء لم يتم

بقلم حسني سيد لبيب

النسيان مرض اصبت به . لا ادري متى زاملني المرض ، فقط اعرف اني مصاب به . وهو داء مزمن ، اعتقد انه يستعصي على العلاج . ولا يظن ظان اني من النوع الذي ينسى كل شيء ، فهناك امور نفسية لاتفارقني وتظل تضجرني ليل نهار ، وكم اتمنى لو انساها . فالاخطاء التي اتردى فيها ، تظل عالقة بذاكرتي ، فانصب بيني وبين نفسي محاكمة ذاتية عن دوافع الاخطاء ، وكيفية تفاديها ، ومدى الجرم الذي يلحق بي بسببها . كذلك هناك احداث جسام في حياتي وفي حياة الاخرين ، لا يمكن نسيانها . لكن النسيان الذي اعنيه ، هو في اشياء بسيطة ، وفي ارتباطات حياتية .. كأن انسى موعدا لصديق ، فاعطي موعدا لاخر في نفس اليو موالساعة ، او اعد عزيزا باحضار شيء يلزمه ، فانساه .

وقد كنت على سفر الى الاتحاد السوفياتي ، وحين حزمت حقائبي ، اعدت فتحها غير مرة ، متمما حاجياتي ومستلزمات سفري . وفي كل مرة اكتشف شيئا مهما لم احزمه وحين وصلت موسكو ، اكتشفت نسيان حاجيات اساسية ، كذا نسيت عناوين بعض الاصدقاء الذين ساكتب لهم من هناك . وهذه كلها امور اعتدت عليها ، واصبحت مصدر طرافة اتندر بها ، وان كانت تسبب لي بعض المشاكل .

ومن موسكو ، انتقلت انا وزملائي الى بلدة صغيرة تدعى «تشربو فيتش» وتقع في شمال اوربا . وهي بلدة صغيرة تحددت معالمها مع اقامة مصنع الحديد والصلب ، الذي هاجرت من اجله اسر روسية من مختلف المناطق ، واستقر بهم المقام هناك . والبلدة صغيرة تستطيع ان تتجول في شوارعها مدة لا تتجاوز ساعتين ، فتلم باطرافها ومعالمها . واهلها طيبون ، شديدو الاهتمام بالاجنبي . ولديهم رغبة قوية في التعارف .. واسهل شيء ان تتعرف على صديق او رفيق هنا ، وان تكون علاقات مع الاسر الروسية . اما الفتيات فمن السهل اليسير ان تلقي التحية على فتاة ، وتتجاذب معها اطراف حديث ما ، وبعد خمس دقائق تتأبط ذراعك بغية النزهة ، وبعد ذلك تصير فتاتك او صديقتك او حبيبتك ، كيفما تشاء ان تطور علاقتك بها .

وقد استقر بي المقام في فندق « لينينجراد » وهو من افخم فنادق البلدة ، ويؤمه كل اجنبي عن البلدة من كافة الجنسيات ، وكذا الروس الوافدون من مناطق نائية .

راودتنا ـ زملائي وانا ـ فكرة التجوال في طرقات البلدة ، للتعرف على معالمها . ولفت انظارنا اتساع الشوارع ، والخضرة المنتشرة على جانبي الطرقات وحول المنازل والابنية .

وحين هبط المساء ، والمساء هنا يحل في العاشرة ، وهو مساء رقيق غير تلك الظلمة الدامسة التي اعتدنا عليها . اتجهنا الى الفندق ، وكل آب الى غرفته ، وما ان اغلقت باب غرفتي حتى رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث فتاة تسالني :

ـ من انت ؟

ـ انا .. انا عربي .

ـ من اي بلد عربي ؟

ـ من مصر .

ـ اهلا وسهلا .

ـ اهلا يا آنسة .

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمي .. عبد الفتاح .

قالت مستغربة :

ـ ماذا ؟

اعدت نطق الاسم بتباطؤ :

ـ عبد الفتاح .

فرددت ورائي :

ـ ابديل فتاخ .

انقلبت العين الفا ، والحاء خاء . لا يهم .

ـ كم عمرك ؟

ـ ثلاثون سنة .

ـ أانت متزوج ؟

ـ لا ...

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟. لم اتزوج بعد

ـ أليست لك صديقة في القاهرة؟

وخشيت ان اقول لها: ليست لي صديقة ، فتسألني : لماذا ؟ فآثرت الراحة واجبت :

ـ لي صديقة جميلة في القاهرة .

ـ ما اسمها ؟

وثارت حفيظتي . ما كل هذه الاسئلة . سألت :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ أريد التعرف عليك .

ـ اهلا وسهلا . يمكنك الاتصال بي فيما بعد .

ـ سعدت مساء .

ـ سعدت مساء .

ووضعت السماعة ، ثم اعدت الحوار في مخيلتي ، فوجدت ان الاسئلة من طرف واحد . لم اسأل عن اي معلومة ، فقط اجبت على اسئلتها . هذا لا يدخل في باب اللياقة ، وارجعه الى طبيعتي الريفية الملتزمة بخط واضح وصريح . ثم

اني انهيت الحديث ، وربما ضايقها هذا . الكل يتهمني باني ريفي قح، لا اتقن فن المجاملة والذوق . وكنت اجابه كل هذا بالاعتزاز بريفيتي .

وفي صباح اليوم التالي ، توجهت مع زملائي الى جهة التدريب ، ثم عدنا الى الفندق . واستلقيت على الفراش عصر ، ناشدا الراحة .

ثم قضيت المساء مع زملائي الذين اصروا على ان اصحبهم الى «الريستوران» . لكني عارضت حين عرفت ان « الريستوران » به مرقص ، اصرارا مني على البقاء على طبيعتي .

– جئت الى هنا ، وليست لدي اي نية في تغيير عاداتي .

قال صبحي :

– نحن هنا بعيدون عن مصر ، نفعل ما يحلو لنا ، انها شهور قليلة ثم نعود .. فلماذا التزمت ؟

– انه الالتزام بالمبدأ .

– هنا مجتمع خال من العقد !

– لكل مجتمع عاداته ، وسانتقي ما يتفق وطبيعتي .

ولفنا صمت ، شردت خلاله قليلا ثم قلت لزملائي :

– الم تلاحظوا الاجانب الوافدين الى مصر ؟ هل يغيرون عاداتهم ، ام يعيشون في بلدنا نفس الطبائع التي استقرت في نفوسهم ؟

اقتنع البعض ، لكن صبحي تشبث بموقفه ، وزاد هجومه :

– انت مغلق على نفسك .

– ليكن ..

وازاء الحاحه ، نزلت على رغبتهم معللا قبولي بانه فرصة للتعرف على شيء جديد . واخذت طيلة الامسية ، ارقب الفرقة الموسيقية حينا ، والمرقص حينا اخر . كما تناولت ما يناسبني من اطعمة . وفي هذه الليلة ، راقص صبحي امرأة تناهز الخامسة والاربعين ، كانت فرحة به . هذا الفرح الجنوني الذي ينتاب امرأة في خريف العمر . ولم تتركه الا مع انتهاء العزف ، وانصراف الجميع ، وبعد ان حصلت منه على موعد .

كنا قد انصرفنا وتركنا صبحي مع امرأته ، فهرع الينا ، ليحكي ما لم نعرفه عن المرأة . وبدا صبحي يهيىء نفسه للعلاقة الجديدة . قلت منتقدا :

– انها تعدت الاربعين ، وانت لم تتجاوز العشرين !



حسني سيد لبيب

★

– ولكنها امرأة .. ولها اغراء لا تتقنه بنت العشرين .

– انت حر فيما تفعل .

وتكتمت امر فتاة الهاتف التي حادثتني امس . واعتبرت ما حدث مجرد دردشة عابرة انهيتها بطريقة تنبو على الذوق ، ولهذا آثرت الكتمان .

وحين عدت الى غرفتي ، رن جرس الهاتف في نفس موعد امس ، واذا المتحدث فتاة الامس ، ودار بيننا حوار ..

– مساء الخير يا عبد الفتاح .

– مساء الخير يا .. تصوري . نسيت ان اسألك عن اسمك .

– وهل يهمك الاسم ؟

– طبعا .

– كيلوبترا .

– هذا اسم ملكة مصرية في التاريخ القديم .

ضحكت .. ثم قالت :

– نفرتيتي .

بادلتها الضحك :

وهذا ايضا اسم فرعوني .

– اذن ، فأنا حتشبوت .

– يبدو انك تدرسين تاريخ الحضارة المصرية القديمة .

– ربما ..

– لا يهمني الاسم الان .

– كم عمرك ؟

– الخامسة والعشرون .

– انت غير صادق .

– لماذا ؟

– بالامس ، قلت ان سنك ثلاثون عاما ، واليوم تقول الخامسة والعشرين .

– سني ثلاثون عاما .

– حقا ؟..

– حقا . لم اكن اعرف ان ذاكرتك قوية .

– الا تعرف سنك ؟

– اعرف . لكني وجدت الثلاثين لا تناسبني . كان ينبغي ان اكون دونها .

وصمتت . لا اعرف سر الصمت سألت :

– ما اسمك ؟

– اليانورا .

– حقا ؟

– حقا .

– وعمرك ؟

– سبعة عشر عاما .

– اسمك رقيق ، وسنك صغير ، وصوتك جميل . يبدو انك جميلة .

– انا اجمل فتاة في الاتحاد

السوفييتي .

اردت ان اقول لها : « انـت مغرورة » لكن الروسية لم تسعفني بمعنى كلمة « مغرورة » . قلت لها:

ـ كيف عرفت ؟

ـ كل من عرفني قال ذلك .

ـ انهم يجاملونك .

ـ لا يهم . فهم جميعا اتفقوا على اني جميلة .

ـ يبدو ان اصدقاءك كثيرون .

ـ ليسوا بالكثرة التي تتصورها.

ـ اانت متزوجة ؟

ـ لم اتزوج بعد .

واردت الاعتذار عن الجفاء الذي بدر مني امس ، فقلت متوددا :

ـ هل اطمع في لقاء ؟

ـ لماذا ؟

ـ لكي ارى اجمل فتاة فيالاتحاد السوفييتي .

ـ غدا يناسبك ؟

ـ يناسبني .

ـ الثامنة مساء ؟

ـ الثامنة مساء .

ـ اين ؟

ـ عند مسرح « الماز » .

ـ وكيف اعرفك ؟

ـ سارتدي قميصا احمر اللون .

ـ الى اللقاء ..

ـ الى اللقاء ..

نسيت ان اسأل عن شكل الثوب الذى سترتديه ، ولونه ، او شكلها هي .. كما نسيت ان اسأل عنرقم الهاتف . واصبح اللقاء متوقفا على اليانورا ، بيدها امر اللقاء . فهي التي ستتعرف علي من خلال قميصي وستسألني ان كنت ادعى « ابديل فتاح » كما تنطق الاسم . واقول لها : « انت اليانورا » فتجيب : « نعم » . ثم يكون اللقاء الذي لم ارتب له .

حرصت علىارتداء ملابس انيقة، كيما ابدو وسيما . وتكتمت امر اللقاء فلم اصرح به . غادرتالفندق في السابعة مساء ، دون ان يراني احد من الزمـلاء . وكان مسرح « الماز » يقع خلف الفندق مباشرة ، فما هي الا خطوات لا تتعدى المائة متر حتى الفيت نفسي عند بـاب المسرح . فوقفت انتظر . لم يـزل امامي ثلاثة ارباع الساعة حتى يحين الموعد . شغلت نفسي بمراقبةالمارة فتاتان انيقتان ، تقبلان نحـوي ، تسألني احداهما :

ـ لو سمحت، اريد لفافة دخان.

اعطيتها واحدة ، فتأملتها جيـدا ثم سألت :

ـ ما نوعها ؟

ـ انه دخان عربي .

ـ اانت عربي ؟

ـ نعم .. من مصر .

ـ لو سمحت واحـدة اخرى لصديقتي .

واشعلت اللفافتين .

ثم تبادلنا حديثـا قصيرا . وسألتاني ان كنت اريد مصادقتهما، فسيحضران غـدا في نفس المكان والموعد ، فشكرتهما ، وحييتهمـا وهما منصرفتان .

وحمدت الله انهما انصرفتا قبل وصول «اليانورا» . باق من الزمـن قرابة العشرين دقيقة . لمحت فتاة تروح وتجيء امامي ، فيما يبـدو انها تنتظر صديقها او عشيقهـا ، وقد تكون هي . ربما جاءت مثـلي قبل الموعد . كان ينبغي ان تتحدث معي ، تعمدت النظر اليها ، مشجعا اياها على الحديـث ، فتجاوزتني ومضت في طريقها ، تروح وتغدو، غير عابئة بي . انها فتاة رائعـة الجمال . لا بد ان تكون «اليانورا» ! اعترضت طريقها :

ـ مساء الخير يا اليانورا .

نظرت الي مندهشـة ، ثم ردت التحية :

ـ مساء الخير .. ولكني لست اليانورا .

ـ اذن فانت تشبهينها .

ـ اشبه اليانورا ؟

ـ نعم .

ـ ولكني لا اعرفها .

وهل اعرفها انا ؟ لقد تورطت في قول غير صادق .

ـ لا تؤاخذيني . اني انتظر فتاة بهذا الاسم .

ـ لا يهم . فانا ايضا انتظـر صديقي .

ـ عن اذنك .

ـ يمكننا ان نتحدث ريثما تجيء صديقتك ، ويجيء صديقي .

ـ لا . قد تتضايق اليانورا حين تراني معك، وقد يتضايق صديقك.

ـ هذا سيسعد ساشا .

ـ ربما لا تسعد اليانورا ، عـن اذنك ، سأقف بعيدا .

ـ لك ما تريد .

وظللت متسمرا فيمكاني، منتظرا غير قلق على شيء . فالموعد ازف ، والمكان يكاد يخلو من المارة ، ومـن السهل على اليانورا ان تراني .

يبدو ان هذا المكان يستقطب العشاق ، فها هي فتاة اخرى تقف على بعد خطوات مني ، ناحلة القوام متوسطة الطول ، ترتـدي ثوبـا منقوشا . قسمات وجهها خالية من ظلال الجمـال ، ربما عيناهـا النجلاوان هما لمحة الجمالالوحيدة في وجهها . ستسعد الفتاة بتحيتي. ولكن حان موعد اللقاء ، وينبغي الا انشغل بشيء . مضى الوقت ثقيلا رتيبا ، بعد ان تجاوزت السـاعـة الثامنة ، ولم تأت اليانورا بعـد . لا يهم . قد تتاخر قليلا . وان كنت على شوق لرؤية اجمل فتـاة في الاتحاد السوفييتي ، كما تقـول حاملة اللقب . ان صوتها جميـل ، هذا حق. اما ما خلا ذلك، فسأحكم عليه بعد ان اراها . للقاء شـوق زائد .

رآني احد الزمـلاء ، فحيـاني وسألني عن سبب وقـوفي هنـا . وقبل ان اجيب ، اردف :

ـ اتنتظر فتاة ؟. لن اعطلك ، عن اذنك .

ولم اتفوه بكلمة واحدة .

وجاء شاب مديد القامة ، وتابط

ذراع جارتي ، ومضيا يتضاحكان ويتغامزان . بينما ظللت انا والفتاة ناحلة القوام ، ولا احد غيرنا سوى المارة الذين يمرون علينا ، ثم يتجاوزوننا ، غير عابئين بنا .

كلانا متسمر في مكانه ، متلفت حواليه ، دون جدوى . لم تجيء اليانورا ، ولم يجيء صاحبها . وظل الوقت يمر ثقيلا وتيبا .

اقبل ناحيتي سكير يترنح يمينا وشمالا . دنا مني ، وفاحت من فمه رائحة الفودكا . قال :

– شاركني التدخين .

ومد يده بلفافة رديئة النوع ، فاعتذرت . لكنه الح ، فأشحت وجهي عنه ، وقلت متأففا :

– اغرب عني .

قال متلعثما :

– استطيع ان احضر لك فتاة تؤنس وحدتك .

– لا اريد .

– لا تريد ان تدخن ، ولا تريد ان تصاحب فتاة . فيما يبدو انك لا تريد ان تعيش .

يبدو ان الجملة الاخيرة اعجبته، فضحك لها بصوت عال .

– لا تريد . لا تريد . شيء لا يطاق ، ان تجد الناس لا يريدون شيئا . كيف تصير الحياة ؟ تصير مستحيلة طبعا .

ورددت وراءه :

– طبعا. طبعا. يمكنك ان تنصرف اذن .

– الى اللقاء .

وشد على يدي بحرارة ، وكرر تحيته :

– الى اللقاء ايها الصديق .

ورددت جملته :

– الى اللقاء ايها الصديق .

وتنفست الصعداء حين انصرف. كانت الساعة الثامنة والنصف . يبدو انها لن تجيء . انها غير صادقة في موعدها . وراجعت ما دار بيننا من حوار . هل هناك شك حول صحة الوعد ؟ الموعد اليوم ، وفي الثامنة مساء ، وعند مسرح « الماز » . تجولت حول المسرح ، ربما تقف في ركن اخر . ولكن سدى كانت محاولتي . فشيعت الفتاة الناحلة القوام بنظراتي ، راثيا لحالها ، فحالها مثل حالي . واردت ان اقول لها انصرفي يا فتاة ، فصاحبك لا يريد ان يلقاك ، مثلما صاحبتي لا تريد ان تلقاني . وهنا تذكرت ما قاله السكير :

– لا تريد . لا تريد . ان الحياة تصير مستحيلة لو ان الجميع لا يريدون شيئا !

عدت ادراجي الى الفندق ، وانزويت في غرفتي ، فاذا بالزملاء ينهالون علي بالمكالمات الهاتفية عن موعد الغرام .. وما كان . ولما قلت لهم ان شيئا من هذا لم يحدث، لم يصدقوا. وهيأوا انفسهم لسهرة في « الريستوران » ، ليسمعوا مني ما حدث .

جلسنا على نفس النضد التي جلسنا عليها امس . وانهالت علي اسئلة واستفسارات : من تكون الفتاة ؟ كيف عرفتها ؟ ماذا حدث اثناء اللقاء ؟

قلت لهم :

– لم يحدث شيء .

وعلت وجوههم الدهشة . قال الزميل الذي رآني :

– قد رايتك بنفسي تنتظرها عند « الماز » هل تنكر ؟

وحكيت لهم قصتي من اولها . بالتفصيل . حرصت ان احكي كل شيء . قال صبحي مندفعا :

– هذا يؤكد رغبتك في ان تكون لك عشيقة . وماذا عن مبادئك ؟ ألم اقل لك انك ستقع في المصيدة ؟ وانه لا بد ان تكون لك فتاة ؟

وثارت تعليقات ساخرة من الزملاء الذين ادهشتهم افعالي، التي تناقض ما اقول .

– لا تكثروا من سخريتكم. اردت ان ارى « اجمل فتاة في الاتحاد السوفييتي » . قالت لي هذا . وانتابني فضول ، وتملكتني رغبة قوية لرؤيتها .

منذ بدات احكي لهم ، تبادلوا الضحكات الخفية الخبيثة ، والغمزات واللمزات . فأحسست ان في الامر شيئا ما يخفونه عني ، او ربما هي ضحكات التهكم والشماتة، لكني تحاملت ، وحرصت على ان اكون رابط الجاش . قال مدحت ، وهو الزميل الذي رآني:

– نسيت يا عبد الفتاح شيئا مهما ..

واعقب صبحي :

– اعوذ بالله من النسيان .

وانطلقت ضحكات عالية، فأدركت ان في الامر شيئا . وعدت اذكر دائي اللعين : النسيان . قال احدهم ساخرا :

– الحمد لله انك تذكرت موعد الطائرة التي ستقلك الى هنا .

قلت مندفعا :

– ولكن موعد الفتاة هو اليوم ، وفي الثامنة مساء ، وعند مسرح « الماز ». اذكر هذا جيدا. وراجعت نفسي في هذا .

قال مدحت بصوت عال :

– ولكنك نسيت ان ترتدي القميص الاحمر كما قلت لفتاتك في الهاتف .

وقال صبحي مبتسما :

– من العجيب انك حرصت على ان تقص علينا كل شيء بالتفصيل ، ولم تنس اتفاقك معها على ارتداء قميص احمر .

واكمل صبحي :

– وكما فهمنا ، انت لم تغير ملابسك بعد عودتك ، وها انت امامنا **ترتدي قميصا أبيض .**

واسقط في يدي ..

شردت لحظات .

اذن ، لا بد ان تكون الفتاة الناحلة القوام ، هي اليانورا . انها ليست جميلة ، انها فتاة عادية جدا وليس باديا على وجهها من آيات الجمال سوى عينيها النجلاوين .

يا لليراع

مـاد اليراع مدلهـا ـ نشوانـا ـ … وعلى شغـاف القلب ماس حنانـا
ما كنت المسـه ليؤنس وحـدتي … الا وزغـرد حكمـة وبيانـا
وسدتـه سطح المنصـة ـ برهة … وفركته .. باناملي سهوانـا
امسكتـه كي استعيـد مشاعري … واخـط احساسي وارسـم آنـا
حنت عيوني اذ رأتـه مسجلا … رسما تحن له الرؤى ازمانـا
رسما برتـه اناملي فاذا بـه … وجه الصداقـة بالاخاء ازدانـا
هللت من فرحي وفـرط سعادتي … يا لليراع اذا استحب بنانـا
وحي الحقيقـة والاجادة مشرق … فيـه ونـور مترع تبيانـا
الله مـا احلى اليراع مطاوعـا … لمس الانامـل ترتئيـه لسانـا
نهر من الابـداع ترفـده الرؤى … ويعبـه القرطـاس ايـا كانـا

حلب … **محمد مرعي مهنا**

لا . ليست اليانورا . اليانـورا لم تحضر . وحين اعلنتهم بهذا ، قـال صبحي :

ـ مائة بالمائة ، هي اليانورا .

ـ اجمل فتـاة في الاتحـادِ السوفيتتي .

ـ قالتها على سبيل الدلالـة والمعاكسة .

وتذبذب الامر عندي ، فتـارة اصدق وتارة اكذب .

عدت الى فراشي ، فاذا بالهاتف يرن ، فانخلع قلبي لرنينه . وقفزت من الفراش لاسمع صوتها :

ـ مساء الخير يا عبد الفتاح .

ـ مساء الخير يا اليانورا .

ـ لم تحضر في موعدك .

ـ انت التي لم تحضري .

ـ بل انت الذي لم تحضر .

وتأكد لي كل شيء . قلت لها :

ـ عذرا يا اليانورا ، قد اصبت بنزلة برد منعتني من النزول .

ـ انتظرتك حتى الثامنة والنصف ثم انصرفت .

ـ عذرا .

ـ احزنني انك لم تصـدق في موعدك ، ولم اكن اعرف انك مريض .

ـ المرض هو الذي منعني .

ـ لا بد ان تعرف حالة الجو قبل ان تغادر الغرفة .

ـ سأفعل .

وودعتها .. ودعت التي قالـت انها اجمل فتاة في الاتحاد السوفييتي ولم اشأ ان ارد على الهاتـف في الموعد الذي تعودت ان تحادثني فيه .

القاهرة … **حسني سيف لبيب**



مكتبة الاديب

كتاب ابي الفتح كشاجم في آثاره وآثار الدارسين

للدكتورة ثريا ملحس – ٨٧٨ صفحة – نشر دار الكتاب اللبناني في بيروت

بهذا الكتاب القيم تتوج ثريا ملحس نتاجها الادبي الخصب . فيبدو في الظروف الخانقة التي نعيشها نفحة طيبة مثيرة تشرع امامنا ابواب القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، وارث منجزات القرون السابقة بمحاسنها ومساوئها ، حيث البذخ والترف يجاوران البؤس والفاقة . العدل والفضيلة يحاذيان الظلم والبطش . الحركة الفكرية في اوجها الذي ينذر بالانطفاء ، الخلافة في تقسمها وتناحر قياداتها ، الذي افاد العلم والادب واضر السياسة والحكم .

في هذا القرن نبغ المتنبي ، قمة شعراء العصر العباسي . وظهر أمراء بني حمدان الذين انتهت اليهم زعامة العرب ورعاية التراث العربي عقيب طغيان سيل الاعاجم واقتحام الروم لحدود الدول العربية وثغورها .

وفيه ايضا – في عهد الخليفة المقتدر – كانت شؤون الخلافة في ايدي النساء . اذ كانت السيدة شغب ام المقتدر ، واختها خاطف وقهرماناتها ، يقمن بتدبير المملكة ، وكانت السيدة توكلهن بالخراج وخزائن الخلافة والقضاء والسجون وقد أثرين اثراء فاحشا . وبلغ ثراء السيدة ما يفوق الاحصاء ، يرتفع لها من ضياعها كل عام الف الف دينار . انما كانت تتصدق باكثره وتواظب على مصالح الحجاج ، تبعث معهم خزانة الشراب والاطباء وتأمر باصلاح الحياض (ص ٢٤٢ من الكتاب) .

كان عصرا جامعا لخصائص العصور العربية . اخذت تنتشر فيه العلوم التي تم نقلها عن اليونانية وسواها من لغات . واخذ العلم ينافس الادب والشعر ، بدليل ان كشاجم الشاعر الذي نظم في جميع فنون الشعر التي سادت في عصره ، وسار شعره على الالسن وقراوه في المجالس ، استهوته العلوم كما استهواه الشعر فدرس منها الطب ، النجوم ، الحيوان ، الهندسة ، الموسيقى ، علم النبات وعلم الطبيخ. وزعم المؤرخ الغزولي انه كان طباخ سيف الدولة الحمداني لكن ثريا تناقش هذا الزعم (ص ٤٦٧) .

ميزة هذا الكتاب في اسلوبه العلمي المبني على دقة الاستطلاع والتحقيق . فالمؤلفة لا تترك مصدرا ذا علاقة بموضوعها ، قديما كان ام حديثا ، الا وتعود اليه ، تقارن بين الروايات المختلفة ، تناقشها وتعارض بين الصحيح والمشكوك فيه وفي استنتاجاتها تميز بين الظن والترجيح واليقين . تضع فصلا كاملا ، ص ١٢ – ٢٥ ، في تصويب الاخطاء التي وقع فيها الباحثون قبلها وعددها احد عشر خطأ . وفصلا في تحقيق نسب كشاجم ، ص ٤٧ – ١١٠ وفصلا اخر في تحقيق اسمه ومعناه وكنيته ص ١١١ – ١٥٩ .

هوامش الكتاب ، بما فيها من شروح ومراجع وتعليقات تضارع في اهميتها اهمية المستوى . لان المؤلفة لا تترك غامضا الا حاولت جلاءه ولا تذكر علما من اعلام الاشخاص والاماكن الا اهتمت بتعريفه ووصفه وصفا موسعا معتمدا على المصادر الاولية . في تعريف الاشخاص تحرص على تحقيق سنة الولادة والوفاة ، وتصحح ما ورد حول موضوعها من اخطاء . من ذلك انها في الكلام على ابي شجاع فاتك ، احد ممدوحي المتنبي وكشاجم (ص ٤٤٢) تشير في الهامش الى خطأ المؤرخين او النساخ الذين جعلوا ابا شجاع فاتكا شخصين احدهما معروف بالخازن والاخر بالمجنون . وفي ص ٤٤٢ تصحح خطأ الذين وضعوا احدى قصائد كشاجم في ديوان الصنوبري احد معاصريه ، فتعيدها الى ديوان صاحبها .

هذا عدا تسعة فهارس تتناول الرموز والمصطلحات ، المخطوطات ، مصادر البحث ، الاعلام ، الالات والاعياد والحيوان والطيور والمأكولات شجرات الانساب ونماذج النقود .

ومع ان الرغبة في التوسع والتحقيق تسوق المؤلفة احيانا الى التكرار والتطويل ، لا يسعنا الا ابداء اعجابنا بالجهود التي بذلتها الدكتورة ملحس في اخراج هذا الكتاب الذي استغرق من وقتها ما يقارب عشر سنوات وجاءت فيه النتيجة موازية للجهود لانها كشفت النقاب عن شاعر اهمله المؤرخون واصحاب معاجم الادباء . وفي حقل النشر العلمي قدمت كتابا نموذجيا يرضي الباحثين والمحققين ويجعلهم يتمنون ان يتاح للتراث العربي في عصر النفط والثروات النفطية عددا اكبر من المهتمين بنشر المؤلفات العربية ودراستها وتحقيقها بالدقة والتفصيل اللذين تميز بهما كتاب ثريا ملحس في كشاجم .

روز غريب

* * *

كما عرفتهم

تاليف وحيد الدين بهاء الدين – ١٢٠ صفحة – (لم يذكر اسم المطبعة) (صدر في العراق)

الصفحات المائة والعشرون التي تضم تحليل نفسيات اربعة عشر اديبا وشاعرا براعة الاستاذ الاديب وحيد الدين بهاءالدين – الاديب العراقي المعروف اعتبرها تقديما جديدا للون قديم من الادب ، فادب الرسائل شيء معروف وقد درس وبحث بحثا طويلا مستفيضا ، اما ان يقدمه الاستاذ وحيد بهذا الشكل الروائي محللا نفسيات بعض مشاهير معاصرينا من الادباء والشعراء من خلال مقتبسات من رسائلهم التي تبادلها معهم فجديد ومثير للانتباه .

ومع انني لا اوافقه في النتائج التي توصل اليها عن بعض هؤلاء الادباء – وقد عرفت الكثير منهم – وبعضهم عن كتب – فانا واياه على وفاق في انهم جديرون بالدراسة ولا سيما من اهمل واغفى عليه الزمن وعلاه غبار النسيان حيا وميتا .

واعتقد – واخالني جازما في هذا الاعتقاد – انه لولا الناقد المرحوم اسماعيل ادهم ونهايته المأساوية المفجعة لما سمعنا باديب بارع لامع اسمه الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين ولافتقدنا بضعة عشر مؤلفا في ادب التراجم . قد يستغرب مني هذا الكلام وقد يعده بعضهم

من التعميمات الكاسحة ، كما يقول الانكليز ولكنه الواقع ، فانتحار الاديب التركي المستعرب في البحر غرقا نتيجة المآسي التي احاقت به الهبت مخيلة شاب حساس ذي سليقة ادبية وقدرة شعرية وان لم يكن شاعرا على ان يبحث عن حياة هذا الرجل الذي كانت نهايته على هذه الشاكلة فطفق يسال عنه في كل صقع ومكان .. فكانت بداية .. وكان اسماعيل ادهم نقطة انطلاق منذ ثلاثين عاما او يزيد ولما تقف ولن تقف عند حد !

كانت البداية استفسارا عن الرجل في المظان والمراجع ولما لم يشف ذلك غليل « وحيد » راح يسال عن معاصريه ويقوده الواحد الى الاخر وتتوطد عرى الصداقة والمودة لا بينه وبين روح اسماعيل ادهم فحسب بل بينه وبين اولئك الذين اعانوه على اماطة اللثام عن بعض اسرار حياته وما اكتنفها من ابهام وغموض وقاده ذلك الى البحث في شخصيات اخرى قبل ان يلفها الابد بدثاره .. بل ويحاول ان يلتقي بها قبل ان يكون لها مصير مفجع كمصير اسماعيل ادهم ، بعد ان حرمته الاقدار والحظ التاعس من اللقاء باسماعيل ادهم ـ المثل الاعلى ـ بالذات .

وانتهى به المطاف الى خير ما يمكن ان ينتهي اليه اديب .. الى ما يمكن ان نسميه « بالتحليل الرسائلي » او استشفاف نفسية الاديب عن طريق دراسة رسائله ، فالرسالة لم تكتب في الاصل الا ليقراها شخص واحد ، وهذا شعورنا جميعا او شعور اكثرنا حين نحرر رسالة ، فنحن نتوقع ان يقراها المرسل اليه وحده فنكشف له عن دخائل نفوسنا ونشكو اليه اوصابنا ومنغصات حياتنا ، وفي هذا بعض الراحة ان لم نقل كلها ، لان فيها ضربا من التحليل النفسي او قل نوعا من الارتياح الذي يشعر به الناس في بعض المذاهب والاديان على « كرسي الاعتراف » !

قلت ان اسماعيل ادهم كان نقطة الانطلاق وانا غير متجن ولا مبالغ فلو قلبت الكتاب الذي بين يدي وحده ـ ولا اطلب اليك العودة الى ما سبقه من كتب ـ لرايت كم مرة يتكرر هذا الاسم ، ولقد يدور الحديث ويدور في افلاك متعددة شتى ثم يعود اليه .

فالكتاب يستهل بالدكتور محمد مندور ، واول سؤال في اول لقاء لوحيد الدين مع الرجل في جلسة ادبية بفندق امباسادور هو :

ـ ما رايك في الدكتور اسماعيل احمد ادهم : المستعرب التركي المعروف ؟

فيكون الرد ـ ولعل في نقله هنا امتاعا وفائدة للقراء ـ « لم الق اسماعيل في الفترة التي ظهرت ابحاثه الاساسية وكنت ادرس في باريس ولكن من خلال كتبه تبين لي انه استاذ منهجي في ابحاثه الادبية ، علمي النزعة يحرص على استقصاء الحقائق وتمحيصها وينفر من التعميم السريع .. وان كنت اظن ان روحه العلمية كانت اقوى من حساسيته الفنية الجمالية ، وربما كانت هذه النزعة الموضوعية هي السبب في اتجاهه نحو المنهج النفسي في تفسير الانتاج الادبي ، فهذا المنهج عقلي بطبيعته ، ولقد سبق لي ان اوضحت خطره على الادب من حيث انه قد يحيل الادب الى وثائق نفسية بدراسة الادباء اكثر من انتاجهم ، وانا بطبيعتي وثقافتي افضل ان يستقل منهج البحث في النقد والادب وتفسيره عن مناهج العلوم الاخرى ، باعتبار ان للادب خصائصه المميزة عن غيره من النشاطات الانسانية ، وهو اولا فن جميل باعتباره صياغة فنية لتجارب بشرية وهو بسبب قيمته وفاعليته ، لا من الدلالة على شخصية صاحبها فحسب وعقده النفسية ، بل بقدرته على اثارة الانفعالات العاطفية والاحساسات الجمالية في النفوس .. » .

ومع ان وحيد الدين لم يحصل على معلومات مباشرة من الدكتور مندور عن اسماعيل ادهم فقد حصل على نقد لاسلوب بحثه ومنهجه وخطرهما على العمل ، وهذا جزء من العمل الميداني الذي قام به الاستاذ وحيد فيما يتعلق بادهم ، لذلك فهو اليوم حجة في الموضوع بعد مضي ثلاثة عقود من الدراسة ومقابلة عشرات من معاصريه ودارسيه والمحتفظين برسائله الشخصية .

ويشير المؤلف احتمال كون ادهم قد قتل ولم ينتحر فيدحض مندور هذه المقالة ويتساءل متهكما : ومن الذي قتله ؟.. كانت له جراة انتحارية ، وكان ظاهرة فاسدة في جراته في الراي .

وكان سبيله الى سامي الكيالي نفس سبيله الى الدكتور مندور .. الا وهو اسماعيل ادهم ، وهنا كان ارتباطه بالكيالي اقوى لاطلاعه على الادب التركي وولعه به مما ادى الى مساهمة الاستاذ وحيد في الكتابة في مجلة (الحديث) الحلبية من ١٩٥٢ حتى توقفها في عام ١٩٥٩ .

والتقى في مؤتمر الادباء العرب الخامس الذي انعقد ببغداد في شباط ـ فبراير ١٩٦٥ بالاديبة المعروفة الاستاذة وداد سكاكيني وما ان علم بالعلاقة الوطيدة التي كانت بين زوجها زكي المحاسني واسماعيل ادهم حتى قامت بينه وبين الفقيد المحاسني صداقة ادبية كاروع ما تكون الصداقات .

ودفعه نفس التيار الى صداقات عبر البحر .. الى اقاصي المهجر حيث نشرت ـ كما ذكر شفيق معلوف في بعض رسائله اليه ـ للمغفور له الدكتور اسماعيل احمد ادهم مجلة (العصبة) مقالتين ، وبعض مصاعب جمة استطاع ان يحصل عليهما ويحصل على صداقة راكزة راسخة في قلب شفيق معلوف ايضا .

اما خاتمة المطاف ومسك ختام الكتاب ، جورج صيدح فقد خيل للاستاذ وحيد الدين يوم راى كتابه « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية » انه ـ على حد قوله ـ برز الى الوجود الادبي فجاة .. لاشاراته اللماحة الى بعض من اراء اسماعيل ادهم بصدد تطور الادب العربي ولا سيما المهجري وتجدده واستقلال الفنان في رؤاه ومنحاه ، ثم صلة هذا وذاك ، بتطبيقات العلوم المعاصرة ، خاصة علم النفس ، تلك كانت الفاتحة .. واستمرت الصداقة والرسائل الادبية عبر ربع قرن ولم تنته الا في ظهيرة الخامس من حزيران ـ يونيه ١٩٧٨ يوم بوغت برسالة مطولة من صيدح وهو على فراش مرضه الاخير .. وكان ذلك قبيل وفاته ، ومن المحتمل جدا ان تكون اخر ما كتبه الشاعر المهجري .

ولم تقتصر المراسلات على النثر وحده ، بل ملأ القصيد الكثير مما تلقاه الاديب وحيد الدين من رسائل .

واذا كان فولتير قد كتب عشرة آلاف رسالة في حياته خلال عمر نيف على الثمانين فلا ادري كم سيحبر وحيد الدين من رسائل فيما لو بلغ هذا العمر وارجو ان يبلغه .

واني لاغبطه على الذخيرة الرسائلية التي بحوزته اليوم وحبذا لو جمعها ونشرها تباعا في مجاميع سيستشف منها الباحثون نفسيات واساليب وطرق تفكير الكثيرين من اكابر معاصرينا الادباء والمفكرين .

والى ذلك فقد كان ـ كما يبدو ذلك واضحا في كتابه « كما عرفتهم » ـ انه لم يكن ليتعرف على اديب حتى يكون همزة الوصل بينه وبين اديب اخر فقد كان ولا يزال وسيلة للتعارف بين الادباء والجمع بينهم وتعريف بعضهم بآثار بعضهم الاخر .

ومن حق التاريخ علي ان اقول انه لولا الاستاذ وحيد الدين لما كانت المراسلات الشعرية بيني وبين الفقيد جورج صيدح ولا الرسائل الفكهة بيني وبين وديع فلسطين ولا مجموعة خطابات الراحل العزيز زكي المحاسني .. وكثيرين غيرهم ..

فالاستاذ وحيد الدين بهاء الدين ظاهرة ادبية خاصة في ادبنا المعاصر منذ ثلاثين عاما او يزيد ، وما كتابه « كما عرفتهم » الا جانب من هذه الظاهرة .. انه لا يؤمن بدراسة الاديب من كتبه وحدها ، بل بمصاحبته ومراسلته علاوة على مصاحبة ومراسلة اصدقائه ومعارفيه

فدراسته للادباء دراسة ميدانية كما يقول الغربيون ، لذلك فان ما كتبه ويكتبه الاستاذ وحيد يعتبر مصدرا اساسيا لا مرجعا ثانويا للباحثين من الاجيال المقبلة .

ولا بد من كلمة حق اقولها في اسلوب المؤلف ... انه اقرب الى السهل الممتنع ، وكثيرا ما يبرع في استعمال الفاظ وتعابير قد تكون مصطنعة مقحمة على اسلة اقلام غيره من الكاتبين ولكنها تجري مجرى الطبع والسليقة في ثنايا سطوره .. فهو باحث اديب ، فقد يكون الباحث غير اديب ، او قد يكون الاديب غير باحث ولكن وحيد الدين قد جمع بين الاثنين معا فتهنئة اعجاب بكتابه « كما عرفتهم » فمن طريق تعريفنا بالاخرين .. عرفناه هو الاخر نفسا وقلبا وروحا .

اكسفورد ــ انجلترا **صفاء خلوصي**

* * *

جبران في آثار الدارسين

جمع واعداد يوسف عبد الاحد ــ ٢٠٠ صفحة ــ حجم كبير ــ
منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ــ مطبعة الكاتب العربي بدمشق

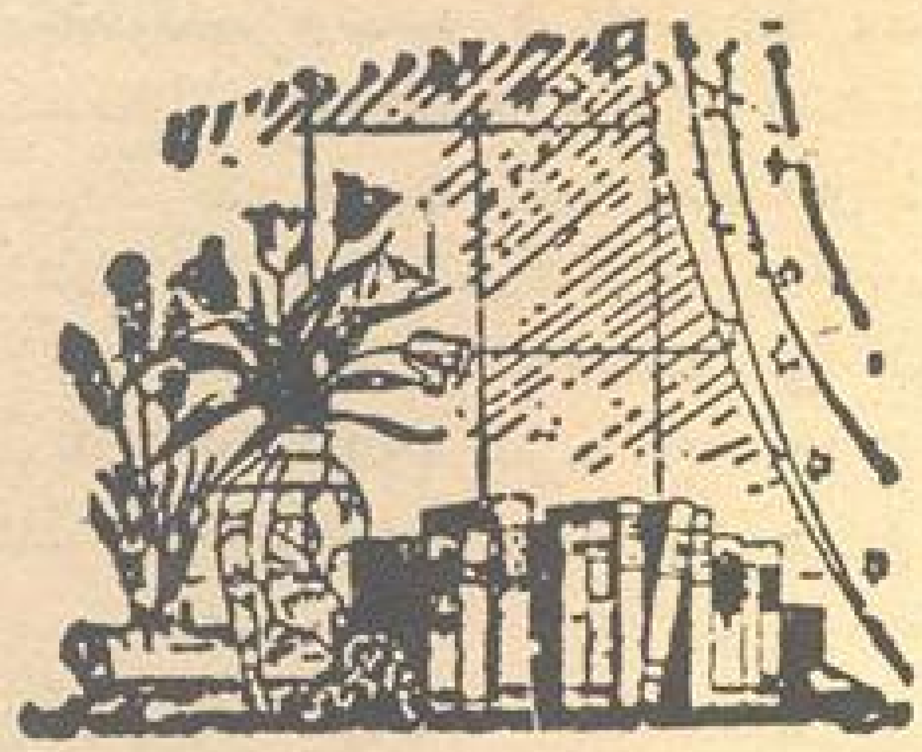
منذ ان عرفت الاستاذ يوسف عبد الاحد في منتصف الخمسينات ــ وكان قد نزح من « بيت لحم » في فلسطين المحتلة على اثر النكبة ــ ربطت بيننا اكثر من صلة ، والفت بيننا اكثر من وشيجة ، وجمعنا اكثر من اهتمام واحد . في طليعة هذه الاهتمامات التي كانت تشغلنا يومئذ ولا تزال ، الرحلة وراء الكتب ، والبحث عن مظانها في كل مكان ، ولا سيما الكتب المعروضة على البسطات ، كبسطة عبده الروماني « ابو رضا » ، وبسطة ابي حسن ، وبسطة ابي نادر .. وكم كنا نفرح ونبتهج عندما نعثر بين الركام على كتاب نادر او مفقود، فنشتريه بثمن زهيد .

كنا نوفر جميع مصروفاتنا لننفقها على شراء الكتب يوم الجمعة.. كان مولعا بادب المهجر عامة وادب جبران خاصة ، فلا يبالي ان ينفق كل ما ادخره لشراء كتاب من كتب جبران ، او مي زيادة ، او امين الريحاني ، او مما كتب عنهم ، وكثيرا ما يكلف المسافرين الى لبنان والمهجر بشراء كتاب اعياه البحث عنه .

ولم يكن يكتفي بذلك ، بل يؤرشف الصحف والمجلات التي كتب فيها عن هؤلاء الاعلام وغيرهم ، يقتطعها ويضعها في مصنفات خاصة ، او يشير اليها في سجل صنعه لهذا الغرض ، اذا لم يستطع الوصول اليها ، حتى تجمعت لديه الوف القصاصات ، والكتب والمجلات التي ناء بها بيته الصغير ، وضاقت بها اسرته . كان ذلك مجرد ولع واهتمام شخصي ليس اكثر . لم يكن يخطر له ان تصبح هذه القصاصات المتناثرة التي جمعها على مدى ثلاثين عاما ، نواة لكتاب عن جبران . هدفه الاول ان يرضي نهمه ، ويشبع هوايته ، ويضع ما يجمع من مصادر في متناول اصدقائه الذين راحوا يقصدون ارشيفه الفني للاطلاع على ما حواه من كنوز ، واخذ ما يشاءون .

ثم توسع وخرج من اطار جبران ومي والريحاني ، الى الكتاب العرب والسوريين خاصة ، اذ افرد لكل اديب او شاعر مصنفا مستقلا ، يلصق فيه كل قصاصة يعثر عليها ، او صورة ، او خبر ، او بطاقة محاضرة او .. الامر الذي تعجز عنه الهيئات والمؤسسات والجامعات .. ولذلك فكر اتحاد الكتاب العرب ان يستفيد من هذا الارشيف الضخم الذي جمعه طوال عمره ليكون وثيقة حية ، يرجع

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ٥٠ ليرة لبنانية

●

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٣٠٠ ل.ل.

●

في الخارج العربي : ١٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

سائر الاقطار :
٥٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية : ١٠٠ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج ٢٠٠ ل.ل. أو ١٠٠ دولار كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء انشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

☎ الادارة : ٢٢٣٨١٩
المنزل : ٢٢٥١٣٩

☎ Dir. 223819
Dle. 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ــ صندوق البريد رقم ٨٧٨ــ١١
بيروت ــ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
ألبير اديب

اليها كل باحث ، او طالب علم .

لقد قصد ارشيف الاستاذ يوسف عبد الاحد اكثر من اديب او ناقد ليسأل عن قصيدة تائهة ، او قصة منسية ، فيجد ضالته المنشودة ، حتى صارت مكتبته محجا لكل متتبع ، راغب في المزيد من البحث والمعرفة ، ومنهلا للوارد من كل مكان .

اعود بعد هذا الى كتابه الجبراني الذي خرج الى النور ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٨١ في مئتي صفحة ، واثبت فيه مؤلفات جبران بالعربية والانكليزية وتواريخ صدورها ، ومؤلفاته

المعربة ومن قام بتعريبها ، ومؤلفاته بالعربية التي ترجمت الى عدد كبير من لغات العالم ، والمراجع الانكليزية والفرنسية عنه ، والكتب التي تناولته بالبحث ، رتبها بحسب حروف المعجم ، ثم الكتب الخاصة عنه ، بالاضافة الى ترجمة مختصرة لحياته من ١٨٨٣ ــ ١٩٣١ ولوحة بيانية بأهم الاحداث البارزة في كل سنة .

واثبت في الكتاب ايضا محتوى عددي مجلة « البيدر » ومجلة « الرسالة » الخاصين بجبران ، وكتاب جبران حيا وميتا لحبيب مسعود ، ورسائل جبران التي جمعها الدكتور جميل جبر وبرنامج مهرجان جبران العالمي ١٩٧٠ ، وفهرس المصادر والمراجع عن جبران لفازي براكس ، وفهرس المصادر العربية عن جبران للدكتور سهيل بشروئي ، واول رسالة كتبها جبران الى والده سنة ١٩٠٤ ، واول مقالة كتبها وكانت بعنوان « رؤيا » .

كما اثبت في الكتاب مقدمة نسيب عريضة لكتابه «دمعة وابتسامة» واخر مقالة كتبها بعنوان « ملك البلاد وراعي الغنم » ، ومقدمة جبران لديوان « تذكار الماضي » للشاعر ايليا ابي ماضي ، وانتهى الى ان الاستاذ البير اديب صاحب مجلة الاديب هو اول من اكتشف حب مي زيادة لجبران ، ثم ختم الكتاب بوصية جبران ، واشار الى اللجنة التنفيذية التي شكلت في لبنان للاحتفال بذكرى مرور خمسين عاما على وفاته ، وتكريس عام ١٩٨١ عاما دوليا لجبران .

هذا العمل الباهظ الذي اضطلع به شخص واحد بمفرده ، لا تضطلع به عادة الا المؤسسات والهيئات مجتمعة ، ولكن الولع الشديد، والاهتمام الزائد كانا وراء هذا الجهد الطيب الذي رافقته الحماسة، وشحنته الرغبة اللامتناهية بواحد من ابرز اعلام النهضة العربية في مطلع هذا القرن .

اما الان ، وبعد ان ترجم هذا الجهد القيم الى واقع ، وصدر في كتاب هو باكورة انتاجه فلا يسعنا الا ان نحثه على مواصلة العمل لاخراج الكتب الباقية عن مي زيادة ، والريحاني وغيرهما من الادباء الذين كرس زهرة عمره لجمع آثارهم ، وتقصي ما يكتب عنهم ، وننتظر ان تتولى احدى دور النشر كتابه « اديبات وشاعرات من الوطن العربي» الذي يعد اول عمل موسوعي من نوعه من حيث التنوع والشمول .

دمشق — عيسى فتوح

* * *

مسافر الى الله

شعر : احمد فضل شبلول ــ ٤٨ صفحة ــ كتاب فاروس ــ مطبعة (؟) ــ الاسكندرية ــ مايو ١٩٨٠ .

الشاعر الشاب احمد فضل شبلول احد الاصوات الفتية في الشعر المصري المعاصر ، وديوانه هذا حبيب الى القلب لانه ترنيمة عذبة في حب الله ، واغرودة نقية في تأمل الكون :

علمنا الله اسماء الاشياء
كي لا نصمت لحظة صدق او لحظة حب
ورأينا ــ نحن الشعراء
ان الماء كلام .. الشمس كلام .. الكون كلام .. ولذا
غنينا للكلمة حين تكون نقيه
للكلمة حين تكون رصاصة صدق
في صدر الوسواس الخناس
للكلمة حين تمد غطاء فوق قلوب الناس
غنينا للكلمة .. فركعنا للنور
وسجدنا لله .

وكلمات احمد فضل شبلول في هذا الديوان بسيطة صادقة ــ بغير تسطيح ــ ولم يلجأ الى (البهلوانيات الاسلوبية) التي ادمنها الشبان في السنوات الاخيرة فصارت قصائدهم نوعا من الاحاجي .

يقول احمد فضل شبلول في (صوفية الاسكندرية) :

هذا بحرك يفتح لي قلبه
هذا موجك مد الزبد الداكن سترا فوقي
هذا رملك تبر اتوسد افقه
هذا فجرك يوقظني قبل صياح الديكة
تتوالد حركة ...
في جنباتك يعزف (خط الرمل)
وتبدأ في الرقص المركبة الزرقاء
ويدار المذياع امام المقهى النائم في احضان الشاطىء
يأتيني صوت « الشيخ محمد رفعت » .. الخ

هذا شعر نقي صاف ، استطاع ان يصنع من الكلمات المعتادة شعرا اخاذا فيه حياة خاصة ، وفيه حركة تلمحها من دقة اختياره الكلمات الدالة على ميلاد صباح جديد : فجرك ــ يوقظني ــ صياح الديكة ــ تتوالد ــ النائم ــ وتلمحها في الفعل المضارع الذي يمنحها الحياة باستمراريته : اتوسد ــ يوقظني ــ تتوالد ــ تعزف ــ تبدأ ــ يدار ــ تأتيني .

انك في هذه الابيات لن تجد فعلا ماضيا سوى (مد) وكأنه يعني افول الماضي لادخل في زخم القصيدة ..

و (كيمياء) القصيدة عند احمد فضل شبلول تبهرك . فللغته مذاق خاص ، فتسمع من نقادنا من يعيب اللغة التقريرية .. ولكنك تقرأ شعر احمد فضل شبلول ، ورغم ما فيه من تقريرية كثيرة فانها محببة لانك لا تحس فيها الافتعال وهو آفة كل فن .

اقرأ معي ان شئت قوله في (اضاءة الماء) التي صدرها بقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » :

الماء خليلي .. منذ اليوم الاول من ايام الخلق
والموج رفيقي .. منذ دوائر تكوينات الارض
والرمل صديقي .. منذ بداية ترنيمات الضوء
والشمس طريقي نحو الحب .. ونحو الدفء .. ونحو الشوق..

ان هذا الديوان الصغير مشحون بالاضاءات والرموز وهو شهادة يقدمها شاعر شاب على نفقته ــ لتثبت ان الجيل الجديد من شعرائنا المحدثين قادر على الاضافة والطموح لتقديم الارفع والانفع .

ديرب نجم ــ الشرقية ــ مصر — حسين علي محمد